

3

سلسلة دراسات الفكر المهدوي

المدينة الفاضلة المهدوية

أفكار أساسية تأصيلية ونقد النماذج
المقابلة في الفكر الغربي

حسين إبراهيم شمس الدين

مركز برآثا للدراسات والبحوث

Baratha Center for Studies and Research



المدينة الفاضلة المهدويّة

أفكار أساسية تأصيلية ونقد النماذج المقابلة في الفكر الغربي

-حسين إبراهيم شمس الدين-

المدينة الفاضلة المهدوية

أفكار أساسية تأصيلية ونقد النماذج المقابلة في الفكر الغربي

حسين إبراهيم شمس الدين



◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: 2024 م - 1445 هـ
◆ عدد الصفحات: 114 صفحة
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

الفهرس

7	مقدمة
13	الفصل الأول يوتوبيا المهدوية في العقل والنص الديني الإسلامي
14	المبحث الأول المجتمع المثالي المهدوي في الرؤية الكونية الإسلامية
14	أولاً: القضية المهدوية: ضرورة الدراسة على ضوء الأبعاد كافة
16	ثانياً: المجتمع المهدوي: في الأبعاد المختلفة
33	المبحث الثاني المجتمع المثالي المهدوي في النصوص الدينية
34	أولاً: القرآن والسنن التاريخية وغاية العالم
41	ثانياً: نهج البلاغة وتصوير المجتمع المثالي
45	ثالثاً: النصوص المهدوية وتصوير المجتمع المثالي
57	الفصل الثاني اليوتوبيا المهدوي في مقابل اليوتوبيات العالمية
58	المبحث الأول أنماط اليوتوبيا وعناصرها

58 أوّلاً: المصطلح والبداية

61 ثانياً: أنواع تصنيفات الكتابات اليوتوبية

75 **المبحث الثاني** **اليوتوبيا المهدوية ويوتوبيات العالم**

76 أوّلاً: محوريّة العدالة الاجتماعيّة في اليوتوبيات اليونانيّة

81 ثانياً: البعد الروحي في اليوتوبيات الدينيّة المسيحيّة

87 ثالثاً: اليوتوبيا المستندة إلى العلم التجريبي/الطبيعي

90 رابعاً: يوتوبيا محوريّة اللذة

95 **الفصل الثالث** **نموذج أدب يوتوبي مهدوي**

96 النصّ الأدبي المقترح

109 **الخاتمة**

111 **المصادر والمراجع**

مقدمة

«المدينة الفاضلة» أو «المجتمع المثالي» وغيرها من التعبيرات والاصطلاحات تُعدّ من المفاهيم الأساسية في المنظومات الاجتماعية الفلسفية، التي تقدّم نفسها على أنّها الخارطة التي يحقّق تطبيقها السعادة أو الكمال أو الخير للمجتمع، سواء أكانت هذه المنظومات تعبّر بصراحة عن هذا الأمر أو تضمّره، في النهاية إنّ كلّ نظام فكري يضع نفسه مقابل أنظمة فكرية أخرى، هو في الحقيقة يتّخذ موقف «الحلّ» لأزمة العالم والمجتمعات. وقد راجع في القرن السادس عشر وما بعده استعمال لفظ «اليوتوبيا» للإشارة إلى هذا النوع من الفكر والأدب، وقد عرّفت اليوتوبيا بأنّها «اقترح ما يراه المؤلّف أنّه النظام الأمثل للحكم، والذي يضمن الحرية والعدالة والمساواة لجميع المواطنين، ويكفل لهم رخاء العيش بأقلّ مجهود. ويبدأ العرض ببيان ما في الدول والمجتمعات المعاصرة للمؤلّف من مفسد وشرور ومظالم واستبداد، ثمّ ينتقل إلى بيان ما يقترحه من علاج للتخلّص من هذه الشرور»⁽¹⁾.

1 - عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 1996، الملحق، صفحة 374.

فالماركسيّة مثلاً جاءت ردّ فعل - في وجه من وجوها- على الرأسماليّة وتقسيم المجتمع بين طبقات مستغلّة - بالكسر- وطبقات مستغلّة - بالفتح-، فهي في موقفها هذا تطرح تصوّراً افتراضياً آخر لمجتمع تجده لا يعاني من الاستغلال والهيمنة التي كان المجتمع الرأسمالي يعاني منها، وكذا إذا أتينا إلى النظام الديني - عموماً- فإنّه برفضه للأئمة الوضعية القائمة على إزاحة المعطى الوحياني - من الوحي- في تنظيم المجتمع، يطرح يوتوبيا خاصّة به للمجتمعات.

خلاصة الأمر، لا يمكن لأيّ مفكّر أو تيار أو مدرسة أن يقدم نظاماً فكريّاً منسجماً ويريده أن يكون حاكماً في المجتمع، إلّا ويستبطن في بنيته التحتيّة "مدينة فاضلة" أو "يوتوبيا" خاصّة به، نعم إلّا أن يقال بأنّ بعض الفلسفات التي تحصر مهمّتها الفلسفيّة والفكريّة بالنقد - كما نجده في بعض التصويرات لمهام الفلسفة⁽¹⁾- وتوجيه الأسئلة دون البناء، فعندئذ هذا الكلام لا يشملها.

1 - وجدت عبر التاريخ إجابات متعدّدة حول سؤال الجدوى من البحوث الفلسفيّة والتأمليّة، وإذا أردنا أن نصنّف تصنيفاً إجمالياً للخطوط العامّة التي تمثّل إجابات على سؤال «ما هي الفلسفة؟» وهي ثلاث إجابات:

1 - الفلسفة تبحث عن الحقيقة المطلقة والنهائيّة

2 - الفلسفة ليس لها وظيفة إلّا النقد، بل هي عبارة عن تفكير نقدي

3 - الفلسفة تعلّم كيفيّة الحياة بطريقة جيدة.

راجع: جان فرانسوا دورتي، فلسفات عصرنا: تياراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، ترجمة: إبراهيم صحراوي، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، 2009، صفحة: 21.

إنَّ الفكر الإسلامي عموماً - أي بما يشمله من علوم متعدّدة كالكلام والفلسفة والفقّه وغيرها - لم يكن بمعزل عن طرح نموذج عالمي لليوتوبيا والمجتمع المثالي، وذلك لشدة تناسب هذا الطرح مع أهداف الإسلام وطبيعته، فإننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم، وجدنا الوعد بالنصر للمؤمنين⁽¹⁾ والوعد بالغبلة للأنبياء⁽²⁾ وإقامة العدل والقسط كهدفين أساسيين لبعثة الأنبياء⁽³⁾، وغيرها من الموضوعات التي تعبر بشكل واضح عن جهاد ونزاع مستمرّ بين أهل الحقّ وأهل الباطل على طول التاريخ⁽⁴⁾ لأجل الوصول إلى شاكلة إلهية للمجتمع الذي يسود فيه عبادة الله تعالى والحقّ والعدل⁽⁵⁾. ولا يحتاج هذا الأمر إلى كثير من الاستدلال، فإنّ طبيعة الدين الإسلامي طبيعة اجتماعية تسعى إلى تحكيم أصول المبادئ الإلهية في المجتمع بكلّ جوانبه وأبعاده، ومن هنا

-
- 1 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم (47).
 - 2 - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ المجادلة (21).
 - 3 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد (25).
 - 4 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران (146).

- 5 - قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج (41).

فليس غريباً البحث عن "يوتوبيا" الإسلام. كما يرتبط مفهوم "آخر الزمان" في الطرح الإسلامي بالقضية المهدوية وظهور الإمام المهدي عليه السلام، فهو الإمام المدّخر لإقامة دين الله تعالى ونشر العدل والقسط. ولذا، فإنَّ البحث عن المجتمع المثالي في الفكر الإسلامي، يأخذنا بشكل حكمي إلى البحث عن القضية المهدوية، وبالذقة حول المجتمع المهدي.

نعم، إنَّ البحث في القضية المهدوية كثير الفروع والتشعبات، فإننا نجد تارة البحث عن شخص الإمام محمّد بن الحسن العسكري عليه السلام وولادته وغيبته الصغرى وعلاقته بشيعته في هذه الأثناء والمتمثلة بالتواصل عبر السفراء الأربعة، ومن ثمَّ غيبته الكبرى، والإجابة عن إشكالات من قبيل طول عمره وكيفية الانتفاع به في غيبته، وغير ذلك، وصولاً إلى علامات ظهوره وكيفية حركته بعد الظهور وما أخبرت عنه نصوص الملاحم من معاركه وانتصاراته، كلَّ هذه القضايا موجودة في الفكر الروائي والكلامي الإسلامي، وقد صنّفت فيها الكتب عند الشيعة الإمامية بكثرة، ويمكن القول إنَّ أقدم كتب صنّفت في موضوع المهدوية ثلاثة: كتاب "الغيبة" للنعماني⁽¹⁾، وكتاب «كمال الدين وتمام النعمة» للشيخ الصدوق⁽²⁾،

1 - محمّد بن إبراهيم النعماني، كتاب الغيبة، نشر صدوق، طهران- إيران، 1397

هجري.

2 - الشيخ محمّد بن علي الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق: علي أكبر

غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران- إيران، 1395 هجري.

وكتاب «الغيبة» للشيخ الطوسي⁽¹⁾، وهي كتب اعتنت بشكل كبير بهذه الفروع والتشعبات، ولكن بحثنا في هذا الكتاب لا يندرج ضمن هذه الموضوعات، بل هو بحث يريد أولاً بيان الصورة الموجودة في التراث الإسلامي حول المجتمع المهدوي كنموذج لليوتوبيا في التصور الإسلامي مقابل التصورات الأخرى التي طرحت في الفلسفات الغربية والأوروبية؛ أي نريد أن نقدّم للقارئ «التصور الإسلامي» حول اليوتوبيا بناء على نموذج المهدوية، ولا نريد الخوض في نقاشات خلافية في إثبات أو نقد ما يثار من إشكالات حول أصل القضية المهدوية؛ إذ هذا موكول إلى محلّه من كتب الكلام والحديث، ولذا فيمكن أن نقول إنَّ البحث الذي بين أيدينا هو إجابة على السؤال الآتي: ما هي مباني وأصول اليوتوبيا المهدوية في التصور الإسلامي؟ وبماذا يفترق عمّا هو مطروح من تصورات لليوتوبيا في الفضاء الغربي؟

ومما سبق، يظهر أنَّ البحث ذو منهج مزدوج، فهو بحث وصفي من جهة ومقارن من جهة أخرى، ولذا ينقسم إلى فصلين، يعالج الفصل الأوّل اليوتوبيا المهدوية في التصور الإسلامي - الإمامي بالخصوص -، وذلك من خلال البحث عن ذلك وفق معطيات العقل والنص، وأمّا الفصل الثاني فيعالج المقارنة بين اليوتوبيا المهدوية وما هو موجود في الفضاء الغربي إجمالاً.

1 - الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي، كتاب الغيبة، دار المعارف الإسلامية، قم - إيران، 1411 هجري.

وأضفنا فصلاً ثالثاً، هو نموذج أدبي لطرح يوتوبي، على غرار الكتابات اليوتوبية التي تتسم بالنفحة الأدبية في غالبها، فقليلاً ما نجد في التراث اليوتوبي كتاباً نظرياً أو فلسفياً بحثاً، بل إنَّ غالب اليوتوبيات هي أدبيات، سواء على نحو السرد الوصفي القصصي أو المحاوراة وغير ذلك.



الفصل الأوّل:

يوتوبيا المهدويّة في العقل والنصّ الدينيّ الإسلاميّ

◀ المبحث الأول :

المجتمع المثالي المهدوي في الرؤية الكونية الإسلامية

● أولاً: القضية المهدويّة: ضرورة الدراسة على ضوء الأبعاد كافّة القضية المهدويّة بما تشتمل عليه من مسائل متعدّدة من قبيل غيبة الإمام المهدي عليه السلام وطول عمره وانتظارنا له ووظيفة المنتظرين وغيرها من المسائل وصولاً إلى الظهور وطبيعة المجتمع المهدوي وما يجري بعد الظهور، هذه القضية والمسائل المرتبطة بها تشكّل بمجموعها حلقة من حلقات الفكر الإسلامي المنتظم، بحيث يكون البحث عن أحد أجزاء المنظومة الكاملة ناقصاً ما لم يتلق الباحث الجزء من حيث «كونه جزءاً من كلّ»؛ أي من حيث كونه ذا ارتباط بأجزاء أخرى تشكّل المنظومة الكاملة. بعبارة أخرى، لو مثلنا الأمر بلوحة فنيّة، ولنفترضها لوحة تصوّر لنا مشهداً طبيعياً كغابة مثلاً، ومن ثمّ أردنا أن نحلّل معاني ودلالات أحد أجزاء اللوحة، والذي يشكّل سنتيمتراً واحداً، فقصرنا النظر عليه على الطريقة «الميكروسكوبية» وحلّلنا الألوان والأطياف التي يتدرّج فيها اللون، سنخرج بنتيجة أنّ هذا الذي حلّلناه وفحصناه عبارة عن لون أخضر من الدرجة الكذائيّة وله خصائص معيّنة وغير ذلك، ولكننا مهما أطلنا البحث في الخصائص، لن نعرف أنّ هذا الجزء - السنتيمتر الواحد- في الحقيقة، هو ورقة «شجرة» من أشجار الغابة الموجودة في اللوحة؛ أي إنّ الخروج من «الميكرو micro» في النظرة إلى «الماكرو macro» والنظرة

الشاملة التي تضمّ الأجزاء إلى بعضها، يُكسب الجزء نفسه دلالات واقعية وحقيقتية لم نكن قد عرفناها قبلاً.

والأمر كذلك في المنظومات المعرفية والفكرية، لا سيّما المنظومة الدينية الإسلامية، حيث إنّ من الآفات التي قد تصيب أيّ باحث، هو تفكيك الأفكار والقضايا الدينية بعضها عن بعض، وتحليلها بشكل متجزئ وبطريقة "ميكروية" دون الالتفات إلى ضرورة النظر الشامل والعام، حيث إنّ هذه النظرة تفتح للذهن وللمعرفة الدينية عموماً "معاني ودلالات" واقعية وحقيقتية لم تكن لتتكشف من قبل، فمثلاً إذا أردنا التعرف على سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام، لا بدّ لنا أن لا نكون بمعزل عن نظرية الإمامة وحقيقتها وأهدافها وغايتها، فلو قصرنا النظر على الأحداث التاريخية محضاً، سنخرج بمجموعة من الأحداث، ولكن نفس هذه الأحداث والأفعال الصادرة عن الأئمة عليهم السلام، ستتخذ لونا ومعنى جديداً إذا أخذنا بالحسبان أنّ هذه الأحداث تمثّلات خارجية للإمامة التي لها أصول عقائدية ولوازم من قبيل العصمة وغير ذلك.

وقضية "المهدوية" أيضاً ليست بمعزل عن هذا الأمر، بمعنى أنّه لا بدّ عند البحث عن مسألة من مسائل المهدوية، كقضية الانتظار أو الغيبة، أن نُنظر إليها على أنّها جزء من رؤية ومشهدية أشمل شكّلت هذه المسألة جزءاً لها، وهذه المشهدية الأوسع هي التي تتمظهر في علاقة قضية "الغيبة" مثلاً بسائر قضايا المهدوية من جهة، وبسائر المنظومات العقدية والأخلاقية والتشريعية والفلسفية الإسلامية من جهة أخرى، فإنّ "الغيبة" نفسها عندئذ سيكون لها أبعاد أخرى على مستوى الفهم والإدراك إذا نظرنا

إليها من عدة محدّدات وأبعاد.

بعد هذا البيان، يمكن القول إنّ موضوع الدراسة والبحث في هذا الفصل، والمتمثّل في قضية "المجتمع المهدوي" أيضاً يندرج ضمن هذا المنهج الذي ذكرناه، ولذا لا بدّ أن نتعرّف على العناصر التي تترابط وتشابك فيما بينها لتنتج لنا رؤية عامّة وفي الوقت نفسه ذات معان ودلالات عميقة حول طبيعة المجتمع المهدوي، وضرورته، وعناصره المكوّنة الأساسيّة.

● ثانيًا: المجتمع المهدوي: في الأبعاد المختلفة

1 - المجتمع المهدوي من منظار التوحيد

التوحيد هو العقيدة والمسألة التي شكّل جوهر التعاليم الإسلاميّة عمومًا والعقائديّة خصوصًا، بحيث يمكننا القول إنّ القضايا الدينيّة كمسألة الصفات الإلهيّة والنبوّة والإمامة والمعاد، ترجع في حقيقتها إلى التوحيد، ومقصودنا من التوحيد المعنى الشامل له الذي يشمل ما يمكن أن نصلّح عليه «معرفة الله تعالى».

فمثلاً في قضية «النبوّة وبعث الرسل والأنبياء»، نجد أنّ مسألة التوحيد ومعرفة الله تعالى من الدلائل التي ترشد العقل إلى التصديق بإرسال الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكرت بعض الآيات القرآنيّة هذه القضية، حيث قال الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مِمَّنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا

لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
الأنعام (91).

حيث يظهر من هذه الآية الشريفة بوضوح أنّ مرجع إنكار بعض المنكرين للنبوة أنّهم "ما قدروا الله حقّ قدره"؛ أي لم يعرفوه حقّ معرفته، وأنّ إنكارهم للنبوة فرع جهلهم بالله تعالى، «فإنّ في إنكار إنزال الوحي خطأً لقدره تعالى وإخراجاً له من منزلة الربوبية المعنوية بشؤون عبادته وهدايتهم إلى هدفهم من السعادة والصلاح»⁽¹⁾. وأفادت هذه الآية أيضاً "أنّ اجترأهم على الله سبحانه وعدم تقديرهم حقّ قدره، إنّما هو من حيث أنّهم نفوا إنزال الوحي والكتاب منه تعالى على بشر، فدلّ ذلك على أنّ من لوازم الألوهية وخصائص الربوبية أن ينزل الوحي والكتاب لغرض هداية الناس إلى مستقيم الصراط والفوز بسعادة الدنيا والآخرة."⁽²⁾

وقد ورد أيضاً من طريق الروايات والنصوص المروية عن الأئمة عليهم السلام أيضاً ربط قضية النبوة بالتوحيد ومعرفة الله تعالى، حيث قال أبو جعفر، محمد بن يعقوب الكليني: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَمْرٍو الْفُقَيْمِيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ قَالَ لِلزَّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَهُ: مِنْ أَيْنَ أَثْبَتَ

1 - العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، 1390 هجري، الجزء 7، صفحة 269.

2 - المصدر نفسه.

الأنبياء والرسل؟ قال: إنا لما أبتنا أن لنا خالقاً، صانعاً، متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه؛ فباشروهم وبباشروهم، ويحاجوهم ويحاجوهم، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الأمر والنهون عن الحكيم العليم في خلقه، والمعبرون عنه جل وعز، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس - على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب - في شيء من أحوالهم، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين؛ لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته. (1)

وخلاصة الأمر، إن قضية النبوة في الفكر الديني الإسلامي ترتكز على عمود التوحيد، والأمر عينه يجري في مسألة الإمامة والاعتقاد بالإمام وضرورة وجوده، فقد ورد في بعض الكتب الحديثية عن الإمام الصادق عليه السلام: خرج الحسين بن عليّ عليهما السلام على أصحابه فقال: أيها الناس إن الله عز وجل ذكر ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه، فقال له رجل: يا

1 - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، دار الحديث، قم - إيران، الطبعة الثالثة،

1388 هجري شمسي، ج1: 409-411.

بن رسول الله بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته.⁽¹⁾ وسنزيد هذه القضية بياناً فيما يأتي لارتباطها بمحلّ البحث أي القضية المهدويّة.

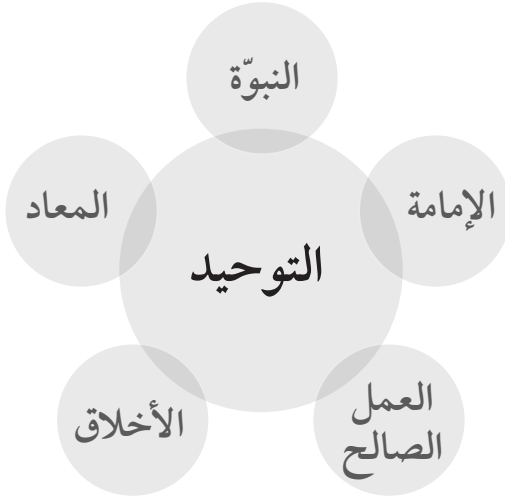
وكذلك الأمر نجد أنّ المعاد ورجوع النفوس الإنسانيّة إلى الله تعالى أيضاً من لوازم المعرفة بالحقّ تعالى وأسمائه وصفاته، ودلّت على ذلك الآيات والنصوص التي ترشد إلى حكم العقل في هذه المسألة، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون (115). فالحكمة الإلهيّة عدم العبث من الأمور التي تحتمّ على العقل الحكم بضرورة المعاد.

هذا على المستوى النظري، وأيضاً على المستوى العملي والسلوكي فإنّ العمل الصالح أيضاً له ارتباط بالتوحيد ومعرفة الله تعالى، ومن هنا يذكر القرآن أنّ مَنْ يعمل السيئات والقبائح من الأفعال، فإنّ فعله هذا يؤوّل في النهاية إلى جرّه نحو إنكار الألوهيّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الروم (10). فالعمل الطالح لا يجتمع مع طهارة الاعتقاد بالله تعالى وأسمائه وصفاته وآياته.

ما ذكرناه أعلاه كان بياناً إجمالياً لقضيّة رجوع الاعتقادات والسلوك

1 - المولى محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الفاء، بيروت، 1983، الجزء 23، صفحة 83.

إلى محوريّة التوحيد ومعرفة الله تعالى وفق المنظومة الاعتقاديّة والرؤية الكونيّة الإسلاميّة.



اليوتوبيا المهدويّة في الرؤية الكونيّة التوحيدية

كلّ فكرة عقائديّة - كما تقدّم- لها فرع وشأن يربطها بالصفات الإلهيّة، والمهدويّة وفق المعتقد الإسلامي الإمامي أحد مصاديق هذه المسألة، وحيث إنّ كلامنا في القضية المهدويّة خاصّ بالبحث عن «المجتمع المهدوي» أي ما سيلي الظهور المبارك، فإنّ بحثنا عندئذ يقع على ارتباط تشكيل المجتمع المهدويّ بالأسماء والصفات الإلهيّة.

وأولّ قضية يمكن أن تُطرح في هذا المجال، هي قضية «العناية الإلهيّة» بالعالم، حيث تشكّل هذه القضية مسألة مهمّة في التراث الفكري الكلامي

والفلسفي الإسلامي، وترجع إلى مسألة عميقة في معرفة الله تعالى، وهي أن الحق سبحانه وتعالى، لا يصدر عنه إلا ما هو مقتضى كماله المطلق، فلا يصدر من الجميل إلا الجمال، وعدم صدور الجميل من الجميل المطلق يرجع إلى افتراضات ثلاثة:

- 1 - إما أن يكون عاجزاً عن الظهور بالجمال والكمال
 - 2 - وإما أن يكون جاهلاً بما عنده من الجمال والكمال
 - 3 - وإما أن يكون هناك مانع خارجي يمنعه من إظهار الجمال والكمال.
- وكل هذه الاحتمالات بالنسبة إلى الله تعالى مستحيلة؛ لأنه القادر المطلق والقدرة ذاته، فلا يمكن أن يكون عاجزاً (الاحتمال الأول)، وهو العالم المطلق بل العلم ذاته تعالى، فلا يكون جاهلاً (الاحتمال الثاني)، كما أنه تعالى هو الواحد الأحد الذي لا شريك له في الوجود المطلق، فلا يمكن أن نتعقل وجود شيء يقهره أو يمنعه (الاحتمال الثالث).

فعندئذ، لا يبقى إلا أن يفيض ويظهر منه الجمال والكمال، الذي هو مقتضى علمه وقدرته وحياته، وهذا الظهور شامل في كل عوالم الوجود بما يتلاءم مع العالم نفسه. وبعبارة أخرى، إن خلق العالم إنما كان لغاية الكمال فقط، ولم يكن إيجاد العالم لأجل النقص والشور والظلم وغير ذلك، فهذه الأمور مما لا تتعلّق بها إرادة الله تعالى، بل هي إن وجدت فلاجل تراحم عالم المادة وطبيعة الحدود الزمانية والمكانية وغيرها، ولكن إرادة الله تعالى في خلق عالمنا، تعلّقت بالغاية الأشرف والأكمل التي يكون عليها هذا العالم، وهذا كما لو سألنا نجّاراً حكيمًا بأنّه يشتغل بالنجارة لأجل القطع والفتات الذي يرميه في النفايات أم لأجل التحفة الفنيّة النهائيّة التي يصنعها؟

لا ريب أنه يقول إنَّ الأصل في الصنع هو المصنوع الأشرف، وما الفتات إلا لوازم عرضية لصنع الأشرف، هكذا الأمر - ولو بوجه بعيد وتشبيهي - في مسألة خلق العالم من قبل الله تعالى، وقد ذكر الحكماء في مباحث "العناية والجود" في الفلسفة الإسلامية هذا المبحث، قال صدر المتألهين: «إرادته [سبحانه وتعالى] للأشياء عين علمه بنظام الخير الأكمل الأصلح، الذي هو تابع لعلمه بذاته وعلمه بذاته هو بعينه داع له إلى إفادة الخير والجود»⁽¹⁾. ومما يعبر به هذا الحكيم العظيم عن صاحب العصر والزمان عليه السلام بأنه "ثمرة العالم وكماله"، وهو ما يشتمل على إشارة لطيفة على ما ذكرناه، حيث يقول في بعض مصنّفاته "صاحب هذا العصر والزمان وهو المهدي القائم بالقسط والعدل على بواطن أهل العلم والايمان، ثم على ظواهر الخلائق من الإنس والجان في آخر الزمان، إذ به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، فيكون وجوده ثمرة هذا العالم وكماله»⁽²⁾.

وأفاد العلامة الطباطبائي أنّ هذا المعنى موجود في النصوص الروائية أيضاً، حيث قال "والروايات المثبتة للرجعة"⁽³⁾، وإن كانت مختلفة الأحاد،

1 - صدر الدين شيرازي محمد بن ابراهيم. 1378. سه رساله فلسفي (متشابهات القرآن - المسائل القدسية - أجوبة المسائل) (أجوبة المسائل). قم - ايران: دفتر

تليغات اسلامي حوزة علميه قم. مركز انتشارات.، صفحة 324
2 - صدر الدين شيرازي محمد بن ابراهيم. 1366. تفسير القرآن الكريم.. قم - ايران: بيدار، الجزء 4، صفحة 221.

3 - المقصود الروايات المتحدثة عن رجعة أئمة أهل البيت عليهم السلام وظهور دولتهم وحاكميتهم في الأرض، وذلك بعد قضية الظهور.

إلّا أنّها على كثرتها متّحدة في معنى واحد، وهو أنّ سير النظام الديني متوجّه إلى يوم تظهر فيه آيات الله كلّ الظهور، فلا يعصى فيه سبحانه وتعالى بل يعبد عبادة خالصة لا يشوبها هوى نفس، ولا يعتره إغواء الشيطان، ويعود فيه بعض الأموات من أولياء الله تعالى وأعدائه إلى الدنيا، ويفصل الحقّ من الباطل⁽¹⁾.

عليه، فإنّ علم الله تعالى تعلّق في إيجاد الغاية التي يكون عليها عالمنا المادّي الطبيعي بأجمل ما يكون من صورة وهيئة، وهي صورة العدل والجمال والنور، وهذا هو بكلّ بساطة "المجتمع المهدوي" في أحد أبعاده، نعم تبقى قضيّة، وهي "شاكلة وهيئة الإنسان في هذا المجتمع"، فنحن إذا أثبتنا أنّ علم الله تعالى - الذي لا يتخلّف - تعلّق بإيجاد المجتمع الأكمل، فلا بدّ من معرفة الصورة المعنويّة والكماليّة التي يكون عليها الإنسان في هذا المجتمع، وهذا ما سيتكلّف البحث الآتي - حول النفس - بتسليط الضوء عليه.

2 - ثانيًا: المجتمع المهدوي من منظار النفس الإنسانيّة

أ - مباحث النفس الإنسانيّة في الرّؤية الكونيّة

إنّ مباحث النفس الإنسانيّة تأخذ في الرّؤية الكونيّة الإسلاميّة - سواء في علم الكلام أو الفلسفة أو العرفان أو حتّى مباحث التفسير - مجالاً واسعاً من البحث والتأمّلات، وإذا أردنا أن نرصد تفرّعات وتشعّبات مبحث

1 - العالمة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 2: 109

النفس، فإننا نجد في المباحث الآتية:

أولاً: المباحث المرتبطة بالمعاد، حيث إنَّ البحث الفلسفي والكلامي - وبالخصوص بعد مرحلة المحقّق الطوسي - قد ربطت مسألة النفس بمبحث المعاد وإثباته، حيث ذكروا أنّ إثبات تجرّد النفس الإنسانيّة، هو شرط من شروط إثبات أنّ لها حياة بعد الموت، وبالتالي لها معاد ورجوع إلى الله تعالى، وبعبارة أخرى، ذكروا أنّ حقيقة الإنسان إنّما هي بروحه ونفسه المجرّدة، التي إذا تلف الجسد لا تتلف بتلفه، وإنّما تفارقه؛ لأنّها في أصل ذاتها ليست من سنخه بل هي مجرّدة عن كلّ ما يرتبط بالمادة، ومن هنا يثبت أنّ لوجودها امتداد بعد الموت، ومن هنا ما ذكره العلامة الطباطبائي من أنّ تجرّد النفس هو "بمعنى كونها أمراً وراء البدن وحكمها غير حكم البدن وسائر التركيبات الجسميّة، لها نحو اتّحاد بالبدن تدبّرها بالشعور والإرادة وسائر الصفات الإدراكيّة، [...] أنّ الإنسان بشخصه ليس بالبدن، لا يموت بموت البدن، ولا يفنى بفنائه، وانحلال تركيبه وتبدّد أجزائه، وأنّه يبقى بعد فناء البدن في عيش هنيء دائم، ونعيم مقيم، أو في شقاء لازم، وعذاب أليم، وأنّ سعادته في هذه العيشة وشقاه فيها مرتبطة بسنخ ملكاته وأعماله، لا بالجهات الجسمانيّة والأحكام الاجتماعيّة".⁽¹⁾

هذا مضافاً إلى أنّنا نجد عند الفلاسفة وبعض المتكلّمين استثنافاً لبحث النفس في مواطن ومراحل المعاد ويوم القيامة، حيث ذكروا أنّ اللذات

1 - العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، الجزء 1، صفحة

والشقاوات ليست جسمانية فقط - بمعنى من المعاني - بل هناك لذات وآلام مجردة عن المادة، وهي اللذات العقلية⁽¹⁾ التي جاء في النصوص الدينية إشارات إليها، وبالتالي إنَّ تجرّد النفس الإنسانية يُثبت مضافاً إلى أنَّ لها معاداً وحياءً أخرى غير الحياة البدنية، أنَّ العالم الآخر أرحب من اللذات والعذابات الجسمانية بحيث تشمل سنخ الأمور المجردة العقلانية. وكذلك الأمر أيضاً تدخل مباحث أخرى من قبيل حشر الأطفال بل والحيوانات أيضاً في المباحث المتعلقة بالنفس، ولسنا بصدد تفصيلها كي لا نخرج عن محلّ البحث.

ثانياً: المباحث المرتبطة بالنبوة والإمامة، وبالذقة المرتبطة بمباحث الولاية - حيث ذكروا أنَّ الولاية هي باطن النبوة والإمامة-، وفي هذا المجال ذكر المتكلمون وبعض الفلاسفة عموماً أنَّ النبوة والإمامة إنّما تثبت مسألها بالنظر إلى ضرورة التشريع وضرورة العدالة الاجتماعية التي لا بدّ فيها من قائم على القانون متميّز عن غيره من بني نوعه مستحقّ للطاعة⁽²⁾، وليس إلاّ النبيّ أو الإمام، ولكنَّ بعض حكماء الإسلام الآخرون

1 - راجع: ابن سينا، الشفاء- الإلهيات، مكتبة السيّد المرعشي النجفي، قم- إيران، 1404 هجري.

2 - قال الشيخ الرئيس ابن سينا: «لما لم يكن الإنسان بحيث يستقلّ وحده بأمر نفسه لا بمشاركة آخر من بني جنسه، وبمعاوضة ومعارضة تجريان بينهما يفرغ كلّ واحد منهما لصاحبه عن مهمّ لو تولّاه بنفسه لا زدحم على الواحد كثير، وكان ممّا يتعسّر إنَّ أمكن وجب أن يكون بين الناس معاملة وعدل يحفظه شرع يفرضه شارع متميّز باستحقاق الطاعة لاختصاصه بآيات تدلّ على أنّها من عند ربه»، الإشارات والتنبيهات، نشر البلاغة، قم - إيران، 1375 هجري، صفحة 144.

دخلوا في قضية إثبات الولاية مدخلاً آخر متفرعاً على مباحث النفس، حيث ذكروا أنَّ النفس النبوية أو النفس الوكوية - نسبة إلى الولي - هي نفسٌ كاملة من حيث ارتباطها بالله تعالى وعبوديتها وعلمها، فالولي هو صاحب النفس القدسية التي تستفيض من المبادئ العالية علمها وحكمتها، وهي صاحبة العقل العملي التام الذي لا يزاحمه هوى ولا غفلة. من هنا، ذكروا أنَّ وجود إنسان كامل كهذا في كلِّ زمان من ضروريَّات العناية الإلهية⁽¹⁾.

ب - موقع القضية المهدوية من الرؤية الكونية بخصوص النفس الإنسانية ولكن يبقى السؤال: ما هو الربط بين هذا المبحث وقضية المجتمع المهدوي؟ أي إنَّ البحث الذي نحن بصدده هو المجتمع المهدوي، وما علاقة البحث عنه بالبحث عن «نفس الإمام عليه السلام»؟ في الجواب على ذلك لا بد من بيان العلاقة بين حقيقة الظهور والغاية التي لأجلها يكون الظهور وحضور المعصوم والإنسان الكامل في المجتمع، ومنه يظهر العلاقة بين النفس الكاملة للإمام والمجتمع الذي يكون قائده.

وبيان إجمالي، إنَّ من الظلم الفكري أن نحصر الإمام وغيته بمنظار الاصلاح الاجتماعي، كأن نقول إنَّ للإمام عليه السلام خارطة إصلاحية

1 - راجع: صدر المتألهين الشيرازي، أسرار الآيات، انجمن حكمت وفلسفه اسلامي، طهران- إيران، 1360 هجري شمسي، صفحة 108 وما بعدها.

تشمل توزيع الثروات وبناء الاقتصاد والسياسة والمجتمع، وبهذا يتحقّق العدل، الذي هو عندئذ عدل اجتماعي سياسي اقتصادي، وهذه هي غاية الظهور والهدف الذي لأجله يظهر الإمام وتظهر حكومته، فإنّ الأمر وإن كان كذلك، ولكنّ حصر الظهور بهذه المسألة، يعتبر نقصاً في الرؤية حول حقيقة الظهور والمجتمع المهدوي؛ إذ إنّ الإصلاح الاجتماعي الذي سيظهره الإمام عليه السلام، هو أحد مراتب العدل والقسط التي ستجري على يديه، ولا يمكن اختزال كلّ ما يريد القيام به في هذه الزاوية والبُعد، بل إنّ النصوص الدينيّة وكذلك الدليل العقلي، يرشدنا إلى أنّ غاية الظهور هو تشكّل مجتمع تكتمل فيه النفوس الإنسانيّة على شاكلة نفس إمامها، وقد ورد هذا المعنى الدقيق في رواية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد النخعي على ما سيأتي عند البحث عن اليوتوبيا المهدويّة في النصوص الدينيّة، ولكنّ ما نريد بيانه هنا - وهو ما أشرنا إليه سابقاً - هو صورة النفوس المتناسبة مع المجتمع المثالي، أي الشاكلة الإنسانيّة في عصر الظهور وما يليه.

وبيان ذلك، أنّ مجتمع الظهور هو مجتمع معنويّ بالدرجة الأولى، يحقّق للبشريّة طريق السلوك إلى الله تعالى، من قبيل العبادة على الوجه اللائق بالإنسانيّة والمعرفة الكاملة بالله تعالى وأسمائه، وما ذلك إلّا لأنّ المجتمع الإلهي الذي يقوده الوليّ الكامل، له جهة أرضيّة من قبيل حفظ النظام ومنع التعدي الاقتصادي والسياسي وما إلى ذلك، وله جهة سماويّة معنويّة تهدف إلى تهذيب النفوس وترويضها، وتهيتها بإخراج استعداداتها الكماليّة إلى مرحلة الفعلية والبروز، ولذلك فإنّ اليوتوبيا المهدويّة هي

يوتوبيا لها ظاهر اجتماعي وباطن نفسي لأفراد المجتمع.

3 - المجتمع المهدوي من منظار الحياة الآخرة

أ - العلاقة بين الدنيا والآخرة في الرؤية الكونية الإسلامية

العلاقة بين الدنيا والآخرة هي من القضايا المحورية أيضاً في الرؤية الكونية الدينية، لا سيما الإسلامية، حيث شكّل السؤال حول الرابطة بينهما والعلاقة التي تحكم عالم الدنيا وعالم الآخرة سؤالاً من أسئلة كثيرة تشتمل على ثنائيات، من قبيل العلاقة بين الروح والجسد، العلاقة بين الفرد والمجتمع، العلاقة بين الله تعالى والمخلوق إلى غير ذلك من الثنائيات التي وقعت محلّ بحث عند الفلاسفة والمتكلمين.

فما هو الرابط بين الدنيا والآخرة؟ هل هي رابطة عالمين منفصلين عن بعضهما البعض، كما لو كانت الآخرة هي كوكب آخر غير كوكب الأرض، فتكون الحياة الآخرة هي حياة شبيهة بالحياة الدنيا ولكن في مكان ومجال حيوي آخر؟

أم إنّ العلاقة بينهما علاقة ارتقائية طويلة، لا علاقة انتقالية عرضية، بحيث تكون الآخرة بالدقة هي ارتقاء النفوس والمجتمعات إلى عالم أرفع وأعلى من العالم المادي الطبيعي؟

يستدلّ الحكماء وبعض المتكلمين الإسلاميين على أنّ الآخرة ليست "دنيا ثانية" بل هي عالم أرفع من العالم الدنيوي، وهذا الأمر نجد له الشواهد والأدلة من النصوص الدينية كما العقل والبرهان، بل إنّ بعض المفسرين كالعلامة الطباطبائي يبنّي تصوّراً راقياً حول هذا الأمر، فيذكر

أن الآخرة في الحقيقة هو انكشاف الحقائق التي كانت مستورة في الدنيا، حيث يعلّق على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم (7)، بما لفظه "هذه الآية تشعر بأن للحياة الدنيا شيئاً آخر غير ظاهره، وأنه هي الآخرة لمكان الغفلة. كما يستفاد من كلامك تقول لصاحبك: إنك أخذت بظاهر كلامي وغفلت عن شيء آخر، دلّ قولك هذا على أن المغفول عنه باطن الكلام، وهو الشيء الآخر. ويدلّ على هذا قوله- سبحانه-: «فَأَعْرَضُ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ»⁽¹⁾. حيث يتحصّل منه أن ذكر الله سبحانه هو السبيل إليه، والتوليّ عنه ضلال عن سبيله، وأن ذكره- سبحانه- لا يحصل إلا بالإعراض عن الحياة الدنيا، وأن المعرض عن ذكره إنّما يبلغ علمه الحياة الدنيا لا يتجاوزها إلى غيره الحاصل بالذكر، فهناك شيء غير الحياة الدنيا، وفي طوله، ربّما بلغه العلم وربّما وقف دون الحياة الدنيا"⁽²⁾.

هذا من حيث العلاقة بين الدنيا والآخرة، ولكن هناك أمر آخر أيضاً يعتبر من المهمّات، وهو العلاقة بين السير والحركة الدنيويّة والوصول إلى الآخرة، وبعبارة أخرى، هل الآخرة هي مرحلة يصل إليها البشر بحركتهم، بحيث تتبدّل الأرض غير الأرض أم أنّ الانتقال إلى الآخرة هو "طفرة"، أي

1 - النجم/ - 29 30.

2 - طباطبائي، محمد حسين، رسالة الولاية، 1 جلد، مؤسسه اهل البيت (عليهم

السلام) - ايران - قم، چاپ: 1، 1360 ه.ق.، صفحه - 107 108.

على حين غرةٍ من الوقت تتفجّر الدنيا وتسير الجبال وتسجّر البحار فتقع الساعة وينتقل الجميع إلى عالم الآخرة؟ وهذا الأمر يجعلنا ننبّه على أنّ القيامة التي تعني الانتقال إلى الآخرة تارة تقال على القيامة الفردية للشخص بعد موته، وأخرى تقال على القيامة الكبرى لكلّ العالم، والقيامة الكبرى هي محلّ سؤالنا الأخير، فهل وقوع القيامة الكبرى هو انتهاء لعالم الدنيا على نحو الطفرة أم هناك حركة مؤدّية إلى القيامة؟ هذه الأبحاث تعتبر من الأبحاث المهمة في مسائل المعاد، والتي ترتبط بمجال بحثنا في هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

ب - موقع القضية المهدوية من الرؤية الكونية بخصوص المعاد

إننا إذا التزمنا - بناء على الأسئلة التي طرحناها سابقاً - بالمبادئ الآتية:

1 - إنّ العلاقة بين الدنيا والآخرة هي علاقة طولية ارتقائية وليست علاقة انتقالية عرضية.

2 - إنّ القيامة هي انتقال لعالم الآخرة بحيث يكون الانتقال ليس من قبيل الطفرة بل من قبيل تمهيد الأسباب للانتقال بالعالم إلى الآخرة.

3 - إنّ القيامة الكبرى كما تشمل الأفراد كذلك تشمل الأمم والجماعات، أي الشخصيات الاجتماعية لا فقط الشخصية الفردية.

إذا التزمنا بهذه الأصول والمبادئ وأثبتناها من باب العقل وما تشير إليه النصوص الدينية في خصوص مسألة المعاد، يفتح أمامنا باب الربط بين المجتمع المهدوي والسير إلى الآخرة؛ لأنّ الظهور وتشكيل المجتمع المهدوي سيكون حلقة من حلقات السير البشري العام منذ آدم وصولاً

إلى القيامة الانتقال إلى الآخرة، وتعبير آخر، يصبح الأمر في رؤيتنا الكونية أنّ ظهور الإمام المهدي عليه السلام وتشكيل المجتمع المهدي، هو أحد الضرورات التي ترتقي بالبشرية إلى مرحلة لاحقة بحيث ينتقلون ويتقربون بسبب قيام هذا المجتمع خطوة بل خطوات إلى العالم الآخر، وفي هذا المجال روايات لافتة من قبيل الروايات التي تتحدّث عن أيام الله تعالى. وبناء عليه، إنّ يوتوبيا المهديّة، أو المجتمع المهدي المثالي، يُعدّ حلقة من حلقات السير المعنوي والجوهري للحياة الإنسانية من المادّة إلى عالم المعنى والتجرّد، وهو عالم الآخرة، ويلى الظهور الرجعة في الدنيا، وهذا المعنى نجد له إشارات - كالصريحة - في كلمات جملة من الأعلام، ولعلّ من أصرح من ذكر هذا الأمر العلامة الطباطبائي في تفسيره حيث يقول: "إنّ يوم الرجعة من مراتب يوم القيامة، وإنّ كان دونه في الظهور لإمكان الشّرّ والفساد فيه في الجملة دون يوم القيامة، ولذلك ربّما ألحق به يوم ظهور المهدي (ع) أيضاً لظهور الحقّ فيه أيضاً تمام الظهور وإنّ كان هو أيضاً دون الرجعة، وقد ورد عن أئمة أهل البيت: «أيام الله ثلاثة: يوم الظهور ويوم الكرة ويوم القيامة»، وفي بعضها: «أيام الله ثلاثة: يوم الموت ويوم الكرة ويوم القيامة»، وهذا المعنى أعني الاتحاد بحسب الحقيقة، والاختلاف بحسب المراتب هو الموجب لما ورد من تفسيرهم (ع) بعض الآيات بالقيامة تارة وبالرجعة أخرى وبالظهور ثالثة، وقد عرفت ممّا تقدّم من الكلام أنّ هذا اليوم ممكن في نفسه بل واقع، ولا دليل مع المنكر يدلّ على نفيه".⁽¹⁾

1 - العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، الجزء 2، صفحة 109.

خاتمة

في هذا الفصل حاولنا رسم إطار عام لموقع القضية المهدوية، وبالخصوص مسألة المجتمع المهدوي في الرؤية الكونية الإسلامية، حيث تبين مما سبق أنّ المجتمع المهدوي تارة يُنظر إليه كقضية ومسألة ترتبط باقتضاءات الصفات الإلهية وما يلزم من معرفتنا لله تعالى، وتارة ثانية ترتبط بمعرفتنا للإنسان ونفسه، وبالخصوص الإنسان الكامل ووظيفته تجاه البشرية، والتي تصل - أي هذه الوظيفة - إلى أوجها في المجتمع الذي نسميه المجتمع المهدوي، وتارة ثالثة ترتبط بمسألة المعاد والعالم الآخر، حيث يشكّل المجتمع المهدوي أحد حلقات السير الضروري للبشرية نحو هذا العالم.

◀ المبحث الثاني:

المجتمع المثالي المهدوي في النصوص الدينية

تأخذ النصوص الدينية دوراً بارزاً ومحورياً في صياغة الوعي الإسلامي تجاه أي قضية من القضايا، فيمكننا أن ندعي دون مبالغة أن للنص الديني في حياة المسلمين دوراً فاعلاً في إنتاج الذهنية والشاكلة المفهومية والمعنوية تجاه القضايا المرتبطة بحياة المسلمين ورؤاهم، وأن صناعة وتوليد الفكر تاريخياً كان على مائدة القرآن والنصوص الصادرة عن أئمة وقادة الدين، حتى إن الفلسفة الإسلامية التي تعتمد من حيث المنهج نموذجاً برهانياً عقلياً بالأصالة، لم تكن بمنأى عن الاستفادة والاستزادة من النصوص الدينية، إن من جهة تغذية الذهن الفلسفي الإسلامي بالافتراضات المسبقة للعقل البرهاني، بمعنى أن النص الديني قد يطرح النتيجة الصادقة على لسان المعصوم عليه السلام، ويفتح بذلك الطريق أمام العقل ليرتب ويستكشف المقدمات العقلية لهذه النتيجة، أو من جهة توجيه هذا العقل نحو أساليب الاستدلال والبرهنة، إلى غير ذلك من التبادل المعرفي بين النص والعقل الفلسفي، والأمر أجلى وأوضح عند المتكلمين والعرفاء الأصيلين، حيث إن الاستفادة من النصوص القرآنية والدينية الأخرى، كان واضحاً لمن راجع كتبهم وتصنيفاتهم⁽¹⁾.

1 - لمعرفة مزيد من التفاصيل حول هذه القضية يراجع (باللغة الفارسية): السيد يدالله يزدانبا، مختصات حكمت متعالیه، انتشارات آل أحمد (ص)، قم- إيران، 1399 هجري شمسي.

في هذا الفصل، نستعرض النصوص الدينيّة التي تساهم في استكشافنا لوعي "المعنى" تجاه آخر الزمان وقضيّة المجتمع المهدوي الأمثل عند المسلمين، لا سيّما الإماميّة، ونقترح تقسيم البحث إلى ثلاثة أقسام، يرتبط القسم الأوّل ببيان هذه القضيّة في القرآن الكريم، والقسم الثاني يرتبط بالنصوص الخاصّة في نهج البلاغة، وأخيراً نخصّص القسم الثالث للنصوص العامّة المرتبطة بالمجتمع المهدوي في سائر مصادر الحديث.

● أولاً: القرآن والسنة التاريخية وغاية العالم

القرآن ليس كتاباً تاريخياً أو كتاباً علمياً بالمعنى الأكاديمي للكلمة، بل هو كتاب هداية بالدرجة الأولى كما عرّف نفسه، ولذلك فالقضايا التي يطرحها في آياته الكريمة، هي آيات ترتبط بتحقيق الهداية للإنسان، ونقصد بالهداية بيان الطريق الذي على الإنسان والمجتمع أن يسلكه حتّى يصل إلى الغاية التي تليق به من حيث إنسانيّته واجتماعه.

والمعارف القرآنيّة كثيرة من حيث الموضوعات، فبعضها عقائدي يبيّن المعارف التوحيدية والأسماء والصفات الإلهية، وبعضها مرتبط ببيان أصول التشريع للحياة الإنسانيّة بعمومها - الفردي والاجتماعي - وبعضها مرتبط بالنفس الإنسانيّة وملكاتهما وبيان منظومة القيم والأخلاق التي لا بدّ أن يتّصف بها الإنسان للرقىّ إلى أعلى مدارج الكمال المعنوي.

ومن القضايا التي تعرّض لها القرآن، قضايا حياة الأمم والمجتمعات البشريّة، صعوداً وهبوطاً، وبيان حال المستكبرين والفراعنة وحال الشعوب والجماعات المختلفة، ونظر إلى هذه الأمور تارة نظرة اعتبار وموعظة،

حيث حثّ المسلمين على أخذ العبرة من الأمم السابقة، وفي هذا إشارة صريحة على أنّ السنن التاريخية حاكمة على سلوك الأمم والمجتمعات وإلاّ لم يكن هناك معنى للاعتبار وأخذ الموعظة، وبعبارة أخرى، إذا كان كفر أو فسق مجتمع من المجتمعات القديمة سبباً بأن يختل نظامها الأخلاقي وبالتالي المسلكي، فيشيع الفقر والعلاقات المدمّرة، فطلب أخذ العبرة من هذا الأمر هو قول بأنكم أيّها المسلمين لو سلكتم هذا المسلك الذي سلكته هذه الأمة القديمة، فستصلون إلى النتيجة عينها، وهذا تصريح بوجود القوانين الحاكمة على سير المجتمعات.

وتارة أخرى كان طرح قضايا حياة الأمم ليبين القرآن أنّ للمجتمع البشري حياة واقعيّة وشخصيّة حقيقيّة، كشخصيّة الإنسان الفرد، فيجري على المجتمع البشري ما يجري على الفرد، من كون له استعداد للكمال الخاصّ به وأنّ له مساراً خاصّاً لا بدّ أن يسلكه حتّى يصل إلى هذا الكمال، ومن هنا يتصدّر بحث الغاية للمجتمع البشري العام، وأنّ القرآن يشرّ بانتهاء حركة البشر في حركة تقديميّة إلى منتهى يشكّل "الشاكلة النهائيّة" المرسومة له في العناية الإلهيّة الأزليّة، وهذا بالتحديد هو محلّ كلامنا حول "المجتمع المهدوي المثالي" حيث إنّنا نعتقد أنّ المجتمع الذي سيقمه الإمام عليه السلام، هو المجتمع الذي سيسير نحو الغاية النهائيّة الكاملة للمجتمع.

وقد عالج السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر هذه القضايا، ويذكر في طيّات بحثه "نحن في القرآن الكريم نلاحظ أنّ هذه الحقيقة، حقيقة أنّ للتاريخ سنناً، أنّ الساحة التاريخيّة عامرة بسنن كما عمّرت كلّ الساحات

الكونية الاخرى بسنن، هذه الحقيقة نراها واضحة في القرآن الكريم، فقد بُيئت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة وبأساليب متعددة في عدد كثير من الآيات: بُيئت على مستوى إعطاء هذا المفهوم نفسه بالنحو الكلي: إنَّ للتاريخ قوانين.

وبيئت هذه الحقيقة في آيات اخرى على مستوى عرض هذه القوانين وبيان مصاديق ونماذج وأمثلة من هذه القوانين التي تتحكّم في المسيرة التاريخية للإنسان.

وبيئت في سياق آخر على نحو تمتزج فيه النظرية مع التطبيق، أي بُيئن المفهوم الكلي وبيئن في إطار مصداقه.

وفي آيات أخرى حصل الحثّ الأكيد على الاستفادة من الحوادث الماضية وشحذ الهمم لإيجاد عملية استقراء للتاريخ، وعملية الاستقراء للحوادث- كما تعلمون- هي عملية علمية بطبيعتها تريد أن تفتش عن سنّة، عن قانون، وإلا فلا معنى للاستقراء من دون افتراض سنّة أو قانون. إذًا، هناك ألسنة متعدّدة درجت عليها الآيات القرآنية في مقام توضيح هذه الحقيقة وبلورتها.⁽¹⁾

وأول قضية يمكن طرحها - قرآنيًا- في هذا المجال، هو نفي الحركة العبيثية للتاريخ الإنساني العام، وأنَّ له حركة مغيّاة - أي لها غاية-، وبعد ذلك يتمّ طرح معالم هذا المجتمع الإنساني الكامل وعناصره المحورية

1 - السيّد محمّد باقر الصدر، المدرسة القرآنية (موسوعة السيّد الشهيد الجزء 19)، مركز الأبحاث التخصصية للشهيد الصدر، قم - إيران، 1421 هـ، صفحة 53-54.

من قبيل إخراج الأرض خيراتها، ومحورية البعد المعنوي الحاكم على المجتمع وغير ذلك.

تعتبر قضية الغاية في حركة التاريخ والمجتمعات من المفردات والمسائل التي لها بعد عقائدي وفلسفي، فالمجتمعات في الحقيقة تسير وتشكل هوياتها وأنساقها وفق فعل "إرادي" هو فعل البشر الذين يشكلون هذا التكتل الاجتماعي، وفعل البشر الإرادي تابع لتصوراتهم ومعارفهم ومحركاتهم الخيالية والعقلية وغيرها، وبالتالي فطرح وجود غاية وفق سنن وقواعد، يجعل الباحث في أول وهلة أمام تناقض الإرادة من جهة والجبر التاريخي من جهة أخرى، بعبارة ثانية، كيف يمكن الجمع بين وجود غاية لحركة الناس وبالتالي المجتمعات بحيث تكون هذه الغاية خارجة عن إرادتهم وبين كون هذه الحركة إرادية بحيث تكون غاية السير ذاتية وداخلية في نفوس البشر وهم من يحددها؟

في باب سير المجتمعات البشرية يذكر الله تعالى هاتين القضيتين:

1 - إحداهما: نسبة فعل الأمم إليها حقيقة وأنها مسؤولة عن أفعالها

وليست مجبرة على ذلك:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام (108)).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف (34)).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَضِيَ بَيْنَهُمْ

بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ يونس (47).
 قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ
 الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ هود (98).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
 بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الإسراء (71).

حيث يظهر من هذه الآيات أن لكل أمة منسجمة فيما بينها، بحيث لها هويتها وشاكلتها الثقافية والعقلية والفكرية الخاصة، لها هوية عند الله تعالى، بحيث يحاسبها وفق هذه الهوية التي اختارتها لنفسها ولها إمامها وقائدها الذي يرعى ويحمي هذه الشاكلة والهوية، وبالتالي حساب الأمم شاهد على المسؤولية الاجتماعية الخاصة لكل أمة، ولا جبر عندئذ.

2 - ظهور أمر الله تعالى، وعدم حصول غلبة أهل الشرك والظلم في عاقبة الأمور:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
 عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة (33).

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
 الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ الفتح (28).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ فِي عِلَالِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ
 لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف (9).

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
 جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ

مَرَّةٍ وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَّبِعُوا ﴿ الإسراء (7).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص (83).

قَالَ اللَّهُ جَلَّ فِي عُلَاة: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص (5).

فهذه الآيات وغيرها تقع في سياق وعد الله تعالى في "آخر الزمان"، وهو وعد ظهور أمر الله تعالى بأنَّ جولات أهل الباطل والظلم لن تدوم بل لها نهاية وأجل اجتماعي تاريخي، حتى يستحكم في النهاية - وبعد سير مرير- أمر المستضعفين في الأرض.

فإذًا، نحن أمام مشهد يعكس هاتين المسألتين، دون أن يكون هناك جبر ولا تفويض، وبيان هذه القضية أنَّ أهل الباطل والظلم لن يكونوا مجبرين على ترك ظلمهم عنوةً بل إنَّ الظلم بطبيعته آب وممانع لأنَّ يكون ذا طبيعة مستديمة، بل هو مثله كمثل الماء الذي يُسَخَّنُ لعروض النار عليه، فيأخذ منها حرارة ما، ولكنَّ طبيعة الماء متنافية مع التسخن الذاتي، إذ سيصل الأمر في آخره إلى أن يطرد الماء هذه الحرارة بشكل طبيعي؛ لأنَّ للماء طبيعة غير حارة، وإن كان لحرارته وجود فبسبب عروض خارجي، وكذلك الأمر بالنسبة للظلم والفساد، فهو أمر عارض على التكوين الأرضي، ولا يمكن أن يدوم وأن يُكتب له الاستمرار، هذا هو التصوير القرآني للفساد والظلم:

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ المجادلة (21).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾
الإسراء (81).

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾
وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿الأنبياء (18).

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ
مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾ النور (39).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ يوسف (21).

وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ﴾ النور (55).

والمتحصّل من ذلك كلّه - كما يقول العلامة الطباطبائي -: «أنّ الله سبحانه يعدّ الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً خالصاً من وصمة الكفر والنفاق والفسق، يرث الأرض، لا يحكم في عقائد أفرادها عامّة ولا أعمالهم إلاّ الدين الحقّ، يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج، أحراراً من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكّم المتحكّمين.

وهذا المجتمع الطيّب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقق ولم ينعقد منذ بعث النبي صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا، وإن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدي (ع) على ما ورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبي ص وأئمة أهل البيت (ع)، لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له (ع) وحده".⁽¹⁾

إذا تبين هذا الأمر، فإن المجتمع المهدي هو المجتمع الذي يمكن أن نعبر عنه بالبيان الآتي: إن طبيعة الباطل طبيعة نفاذية ومنتھية، بخلاف طبيعة الحق التي لها ذاتية البقاء والاستمرار وعدم الأفول، ومهما كان نور الحق خافتاً، فلا يمكن لأكوام من الظلمة أن تطفئه، فالنور لا يصارعه الظلام، وبذلك فإن الحق هو النور الذي ذاته الظهور والتحقق، والباطل ليس إلا الانكفاء والاضمحلال، وبالتالي فإن تراكم النور وتشكّله، هو مقتضى الرحمة الإلهية والعناية والجود، وأمّا الظلم والفساد فهي مظاهر آتية ومحدودة في إطارها الزماني والمكاني مهما علا صراخها، هذا ما يمكننا أن نأخذه من مشهد التاريخ ونهايته في القرآن.

● ثانياً: نهج البلاغة وتصوير المجتمع المثالي

الفضيَّتان اللتان ذكرناهما سابقاً، أعني: قضية المحدودية الذاتية للظلم والفساد والباطل، وقضية حتمية ظهور أمر الله تعالى والحق والعدل، من القضايا التي أخذت مأخذاً في بيانات وخطابات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

1 - العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 15: 155.

فأما بالنسبة للقضية الأولى، فإن ما نجده من الظلم والفساد هو من الأمور ذات "العمر القصير" في هندسة الوجود، ونورد فيما يلي نموذجين من ذلك:

* «فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ - مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وِصُولَاتِهِ وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ - وَاتَّعَظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ وَمَصَارِعِ جُؤَبِهِمْ - وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبَرِ - كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبَرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ - لَرَخَّصَ فِيهِ لِحَاصَةِ أَنْبِيَائِهِ - وَأَوْلِيَائِهِ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرِهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ - وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضِعَ - فَالْصَّقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ - وَعَقَرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ - وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ -»⁽¹⁾

* «واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم - من المثالات بسوء الأفعال وذميم الأعمال - فتذكروا في الخير والشر أحوالهم - واحذروا أن تكونوا أمثالهم - فإذا تفكرتكم في تفاوت حاليتهم - فالزموا كل أمر لزم العزة به شأنهم - وزاحت الأعداء له عنهم - ومدت العافية به عليهم - وانقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة عليه حبلمهم - من الاجتناب للفرقة واللزوم للألفة - والتحاوض عليها والتواصي بها - واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم وأوهن منتتهم - من تضاعن القلوب وتشاحن الصدور - وتدابر النفوس وتخاذل الأيدي وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم - كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء - ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء - وأجهد العباد

1 - أمر المؤمنين عليه السلام، نهج البلاغة، إعداد: الشريف الرضي، تحقيق: صبحي الصالح، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1: 290.

بَلَاءٌ وَأَضِيقَ أَهْلَ الدُّنْيَا حَالًا - اتَّخَذَتْهُمْ الْفِرَاعِئَةَ عَيْدًا فَسَأَمُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَجَرَعُوهُمْ الْمُرَارَ فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَاكَةِ وَقَهْرِ الْعَلْبَةِ - لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ - حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ - جَدَّ الصَّبْرَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَدَى فِي مَحَبَّتِهِ - وَالْإِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ - جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا - فَأَبَدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ - فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا وَأَئِمَّةً أَعْلَامًا - وَقَدْ بَلَغَتِ الْكِرَامَةُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ. فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتْ الْأَمْوَالُ مُجْتَمِعَةً - وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلَفَةً وَالْقُلُوبُ مُعْتَدَلَةً - وَالْأَيْدِي مُتْرَادِفَةً وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً - وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً وَالْعِزَائِمُ وَاحِدَةً - أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ - وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ - فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ - حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ وَتَشَتَّتِ الْأُلْفَةُ - وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْتَدَةُ - وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلَفِينَ وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ - وَقَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كِرَامَتِهِ - وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ وَبَقِيَ قِصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ. (1)

وهذا الكلام يظهر منه على وجهه الصريح أن علة الدوام والبقاء الاجتماعيين هو الحق والصدق وحسن الإيمان والاعتدال النفسي والفكري والروحي، وأن الظلم والفساد كالعلة للزوال وشتات الأمر والملك، وهو ما كنا قد أشرنا إليه سابقاً في الآيات القرآنية.

أما القضية الثانية، أعني حياة الحق والعدل وأن آخر الزمان لا يمكن

أن يكون مظهرًا لذلك بحكم جود الله تعالى وعنايته، فأصرح ما في هذا الباب - في نهج البلاغة- ما ورد في حديث أمير المؤمنين عليه السلام مع كميل، ونحن نورده بطوله ثم نعلق عليه لأهميته:

« يَا كَمِيلُ هَلَكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ - وَالْعُلَمَاءُ بِأَقْوَنَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ - أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ - هَا إِنْ هَاهُنَا لَعَلْمًا جَمًّا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى أَصَبْتُ لَقْنَا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ - مُسْتَعْمَلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا - وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ - أَوْ مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ - يَنْقَدِحُ الشُّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ - أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ - أَوْ مِنْهُومًا بِاللَّدَّةِ سَلَسَ الْقِيَادَ لِلشُّهْوَةِ - أَوْ مُعْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ - لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ - أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَّهَا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ - كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ - إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا وَإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا - لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ - وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أَوْلَيْكَ أَوْلَيْكَ وَاللَّهُ الْأَقْلُونَ عَدَدًا - وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا - يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظْرَاءَهُمْ - وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ - هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ - وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ - وَأَنْسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ - وَصَحَبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أَرْوَاحِهَا مُعَلَّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى - أَوْلَيْكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ - آه آه شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ - انصَرَفَ يَا كَمِيلُ إِذَا شِئْتَ. ⁽¹⁾

ويظهر من هذا الحديث، أمور عديدة:

- 1- إنَّ العلم والمعرفة بالله تعالى، والتي هي الشرف الذي يتميّز به الإنسان عن سائر الكائنات، لا يمكن أن يفنى ويموت ذكره في الأرض، فهذا خلاف العناية الأزليّة لله تعالى، ومن هنا ذكر أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الحديث على ما روي عنه، أنّ الأرض لا تخلو من حجة.
- 2- إنَّ بقاء أهل الحقّ والمعرفة، هو فرع عدم إمكان بطلان بينات الله تعالى، فالحجج والمعارف الأصيلة التي بثّها الله تعالى في قلوب الأولياء، لا يمكن أن تنطفئ في يوم من الأيام، بل لا بدّ أن يستمرّ حبل المعرفة الإلهية المتمثّل بمعرفة الأئمة والمعصومين مستمرّاً، ولو اقتضى هذا الأمر غيبة الحامل للعلم والمعارف.
- 3- إنَّ أئمة الدين وحججه، لهم غاية هي إيداع هذه المعارف والعلوم التي بها يستكمل الإنسان في مدارج الكمال في قلوب أمثالهم، فلا تنقطع بذلك سلسلة الحقّ والحقيقة.

هذا يشير إلى أنّ أمد الحقّ لا ينتهي، بخلاف الباطل الذي كتب الله تعالى له الزهوق والاضمحلال، هذا تمام ما أردنا الإشارة إليه في خصوص نهج البلاغة، وإنّ كان الأمر قابلاً للتوسعة والتفريع أكثر.

● ثالثاً: النصوص المهدويّة وتصوير المجتمع المثالي

النصوص الواردة في قضية المهدويّة وتشعباتها كثيرة جداً، وقد صنّفت الكتب قديماً وحديثاً التي صبّت جلّ اهتمامها حول جمع وإحصاء ما روي عن النبي وآله عليهم السلام في هذا المجال، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى أنّ الاعتماد على النصوص والاستناد إليها، لا يمكن أن يكون عبثياً بحيث يأخذ

الباحث أو القارئ أيّ نصّ من النصوص ويبنى عليه اعتقاداته أو أفكاره، ولذا وضع علماءنا الأجلاء ضوابط موضوعيّة لقبول الروايات الموثّقة، والتي يمكن الركون إليها أو لرفض تلك التي تعاني خللاً مانعاً من قبولها، ولهذه القضية مجال واسع للبحث، ولكنّ ما أردنا بيانه أنّنا في هذا القسم من البحث اعتمدنا التدقيق في الأسانيد لنخرج جملة من النصوص التي يمكن القول بأنّها معتبرة وموثّقة - لا أقلّ على بعض مباني الفقهاء والمدققين العظماء في عصرنا- لنستخرج منها ما نريده من بيان الأطروحة الإماميّة لبعض أبعاد اليوتوبيا المهدويّة. وقبل البدء بذلك لا بدّ من طرح ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: قد يسأل شخص أنّنا في القسم السابق وعند البحث عن الرؤية المهدويّة في نهج البلاغة لم ندقق في الأسانيد كما هي الحال هنا، وجوابنا على ذلك أنّ المقدار الذي وجدناه في نهج البلاغة من الطرح المتعلّق بمشهد آخر الزمان، قليل نسبياً وهو متوافق مع الآيات القرآنيّة، ولم يطرح المسألة بتفاصيلها التي نجدّها في سائر النصوص والروايات، ولذا أغنانا صحّة المضمون المتوافق مع الآيات القرآنيّة والأدلة والبراهين العقليّة عن البحث في الأسانيد.

الملاحظة الثانية: إنّنا نريد في هذا القسم بيان بعض الأوجه التي أشارت إليها النصوص والمتعلّقة بمشهد آخر الزمان - مشهد ما بعد الظهور المبارك لصاحب العصر عليه السلام- ساعين إلى تحليل وتفسير بعض النصوص، لا مجرد نقلها، وبعض تلك النصوص وصلت إلى حدّ التواتر والكثرة بحيث يطمئنّ العقل العادي بأنّه لا يمكن أن تكون من الروايات الكاذبة، وذلك مثل أنّ الإمام عليه السلام يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، فهذا المضمون بل هذه الألفاظ بعينها تكاد تكون

كالشمس الساطعة في سماء النصوص والفضاء الحديثي.
الملاحظة الثالثة: اكتفينا عند نقل الحديث عدم ذكر سنده بتمامه، وذلك لعدم الإطالة، موكلين أمر التحقيق في ذلك إلى القارئ بعد الإشارة إلى مصدره في الهامش. وفيما يلي نقسّم البحث إلى مشاهد وجدناها تحكي حال يوتوبيا الظهور في الروايات المعتمدة.

المشهد الأول: الأرض تمتلئ عدلاً

ذكرنا أنّ النصوص الواردة بلفظ أنّ الإمام عليه السلام إذا ظهر «يملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» من النصوص المتواترة لفظاً، وبالتالي يقطع الباحث بصدور هذا اللفظ بعينه عن المعصومين عليهم السلام، ومن هنا يمكننا عدّ «امتلاء الأرض عدلاً» المشهد الأول الذي يشكّل مشهد عالم الظهور، واليوتوبيا الإسلاميّة التي تتمظهر في المجتمع المهديوي تتميّز بلون «العدل»، والكلام يقع على أمرين:

الأمر الأول: في نقل جملة من الروايات الصحيحة في هذا المعنى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِي اسْمُهُ اسْمِي وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي أَشْبَهُ النَّاسَ بِي خَلْقًا وَخُلُقًا تَكُونُ بِهِ غَيْبَةً وَحَيْرَةً تَضِلُّ فِيهَا الْأُمَمُ ثُمَّ يُقْبَلُ كَالشَّهَابِ الثَّقَابِ يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مِلَّتْ جَوْرًا وَظُلْمًا.»⁽¹⁾

1 - ابن بابويه محمد بن علي . 1395. كمال الدين و تمام النعمة. تهران - ايران: دار الكتب الإسلاميّة، الجزء الأول، صفحة 286.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِي اسْمُهُ اسْمِي وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي أَشْبَهُ النَّاسَ بِي خَلْقًا وَخُلُقًا تَكُونُ لَهُ غَيْبَةٌ وَحَيْرَةٌ حَتَّى تَضِلَّ الْخَلْقُ عَنْ أَدْيَانِهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْبَلُ كَالشَّهَابِ الثَّاقِبِ فَيَمْلؤها قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَّتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا.»⁽¹⁾

عن عبد العظيم الحسني قال: «قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ الْقَائِمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ الَّذِي يَمْلأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَّتْ جَوْرًا وَظُلْمًا» فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا مَنَّا إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهَادٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَلَكِنَّ الْقَائِمَ الَّذِي يُطَهِّرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْأَرْضَ مِنَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ وَيَمْلؤها عَدْلًا وَقِسْطًا»⁽²⁾

الأمر الثاني: في تحقيق معنى بسط العدل وامتلاء الأرض به

بعد أن تبين أن النصوص الدينية القطعية تشير إلى مصطلح «امتلاء الأرض بالعدل» على أنه المشهد الذي تتميز به اليوتوبيا المهدوية، لا بد أن نعيد بناء تصورنا الإسلامي المتوافق مع العقل الفلسفي والنص الديني حول معنى هذا المفهوم، فما هو معنى امتلاء الأرض عدلاً؟ هل هو بمعنى «العدالة الاقتصادية» أو التي تسمى بحسب الاصطلاح المعاصر «العدالة التوزيعية»؟ أو هي بمعنى «العدالة الإجرائية» في مجال إقامة الحدود والمحاکمات القضائية كالاقتصاص من القاتل وعدم تهرب الفاسد من المحاسبة أم غير ذلك؟

1 - المصدر نفسه، صفحة 287.

2 - ابن بابويه محمد بن علي. 1395. كمال الدين وتمام النعمة. تهران - ايران: دار الكتب

الإسلامية، الجزء الثاني، صفحة 377.

لا شك أنّ مفهوم "العدالة" يشمل هذين المعنيين، ولكن إذا نظرنا إلى معطيات الفكر الإسلامي على مستوى العقائد والفلسفة والتفسير وحتى العرفان، نجد أنّ هناك أفقاً أرحب وأوسع للعدالة، وبيان إجمالي إنّ صاحب العصر والزمان عليه السلام «يكتب له النجاح في تحقيق هذا الهدف ونشر العدالة في أنحاء العالم كافة، وليست العدالة التي يفهمها عامّة الناس والمتمثّلة فقط في بسط العدل على الأرض لتحقيق الرفاهية للناس، بل العدالة في كافة المراحل والدرجات الإنسانيّة. الإنسان إذا ما انحرف عن جادة الصواب سواء انحرف عملي، أو انحرف روحي، أو انحرف عقلي، فمعالجة هذه الانحرافات بالمعنى الحقيقي هي إيجاد العدل لدى الإنسان. فعندما يعود الإنسان المنحرف خلقياً إلى جادة الاعتدال، فإنّ ذلك يعني تحقيق العدالة في داخله، وإذا ما طرأ أي انحرف أو سقم على عقائد الإنسان، فإنّ تعديل هذه العقائد المعوجّة والسقيمة والعمل على تصحيحها وجعلها على الصراط المستقيم، يعدّ بسطاً للعدل على صعيد عقل الإنسان. ففي عصر ظهور المهدي الموعود-- سلام الله عليه-- الذي ادّخره الله، وبما أنّه لم يتيسّر لأحد من الأوّلين والآخرين - سوى الإمام المهدي الموعود- أن يبسط العدل في كلّ العالم»⁽¹⁾.

وبيانه التفصيلي أنّ الظلم الذي يقابل العدل، يمتدّ في دائرة وجود الإنسان

1 - خميني، روح الله، رهبر انقلاب و بنيانگذار جمهوری اسلامی ايران، صحيفة الإمام (ترجمه عربی)، 22 جلد، مؤسسه تنظيم و نشر آثار امام خمينى (س) - ايران - تهران، چاپ: 1، 1429 ه.ق.، الجزء 12، صفحة 384

ما امتدّت الحقوق اللازمة في عنقه، فحيثما وجد حقٌّ فهناك ظلم يتمثّل في تعديّ هذا الحقّ، وهناك اعتدال وعدل يتمثّل في الاستقامة على طريق الحقّ والحقيقة، وللإنسان مراتب ونشآت متعدّدة في وجوده، فتارةً ننظر إلى أفعاله وسلوكياته، فتمتظهر بذلك حقوق عليه لله تعالى وللناس وللأرض وللمجتمع، فله حقّ في العبادة والطاعة، وهو سبحانه جعل الحقّ للناس في عنق الإنسان وحقّ للمجتمع وحقّ للأرض، وعندئذٍ فتجاوز أيّ حقٍّ من هذه الحقوق العمليّة يسمّى "ظلمًا"، والاستقامة الفرديّة على تأدية هذه الحقوق تسمّى اعتدالاً عمليّاً ومسلِكياً، وكذا فإنّ المجتمع - كشخصيّة لها نوع استقلالية ولها هويّة خاصّة كما بيّنا سابقاً - له اعتدال وظلم، ومن هنا نجد في القرآن الكريم إشارة إلى هذا المعنى، حيث قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ النساء (10).

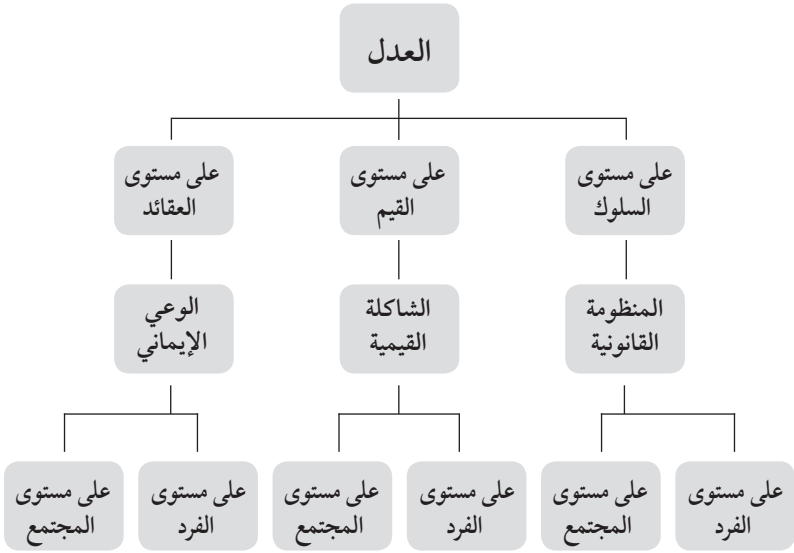
وهناك نشأة ومرتبة أخرى - غير النشأة العمليّة السلوكيّة - وهي مرتبة الأخلاق والقيم الإنسانيّة، والتي لا تكون عادة جزءاً من التشريع والتقنين - بوجه من الوجوه - بل لها منظومتها الخاصّة، وإن شكّلت أساساً للتشريع والتقنين فيما بعد، ولكنّ هناك ظلم أخلاقي أيضاً بأن يجعل الإنسان هيئته الخلقية على غير سمت الاعتدال، وبهذا يكون ظالماً لنفسه ولهيئته الخلقية، وبعبارة أخرى، قد يكون الإنسان مؤدياً لحقوق الناس والمجتمع والأرض على مستوى العمل والسلوك، ولكنّه يستبطن غلاً أو حسداً أو عجباً أو تكبراً، فهذا الإنسان قد خرج عن حدّ الاعتدال في نشأته الأخلاقيّة، وقد أشارت الآيات القرآنيّة إلى ذلك في بعض تعبيراتها عمّا يسمّى "ظلم النفس"، ولهذه النشأة مضافاً إلى ظهورها على المستوى الفردي أيضاً ظهور على مستوى شخصيّة المجتمع، فالمجتمع

الذي يمجّد الكذب أو يضع للتكبر حظاً من المدح والقيمة، ويجعل التواضع نوعاً من الخسّة وما إلى ذلك، هو مجتمع مختلّ على مستوى هيئته وشاكلته القيمية، ويسمّى مجتمعاً ظالماً حائداً عن طريق الاعتدال بهذا المعنى.

والنشأة الثالثة، هي نشأة الاعتقاد والإيمان، حيث إنّ من الظلم بناء الإيمان والاعتقاد- العقلي أو القلبي- على هيئة تنافر الحقّ الوجودي؛ أي إذا كان وجود الله تعالى حقّاً، فمن الظلم بناء النفس عقائدياً وإيمانياً وروحياً على الكفر والإلحاد والشرك، وجاء هذا المعنى واضحاً في القرآن الكريم حيث قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان (13). حيث جعل الشرك بالله تعالى ظلماً. وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ البقرة (54)، وَقَالَ جَلَّ فِي عُلَاه: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ النساء (153). فجعل طلبهم رؤية الله تعالى جهرة من الظلم؛ لأنّ الحقّ والحقيقة تعني أنّ الله تعالى متعالٍ عن الرؤية جهرة.⁽¹⁾

1 - كي لا نطيل، لم ندرج الآيات الظاهرة في هذا الأمر في المتن، ولكن نوردتها في الهامش: قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام (82). قَالَ اللَّهُ جَلَّ فِي عُلَاه: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِزِي الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ﴾ الأنعام (157). قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ الكهف (57).

وهذا المعنى الثالث من الاعتدال، أيضاً كما يتجلّى في البعد الفردي - بإقامة النفس على التوحيد - يتجلّى أيضاً على مستوى الهيئة النفسية والإيمانية والاعتقادية للمجتمع، فيمكننا أن نقسّم المجتمعات إلى مجتمعات توحيدية أو غير توحيدية بناء على شاكلتها الباطنة الاعتقادية، فنحصل من جميع ما مرّ ما يمكن بيانه في الرسم الآتي:



وعندئذ، فإنّ العدل لا بدّ أن يشمل كلّ هذه المعاني، ولا بدّ أن يكون امتلاء الأرض عدلاً مشتملاً على كلّ هذه الأبعاد التي استقينها من النصّ الديني، لا سيّما القرآن الكريم، ومن هنا ذكر أعظم الحكماء حول يوم الإمام المهدي أنّ: «زمان ظهور المهدي عليه السّلام [...] غاية سطوع

شمس الحقيقة في وسط سماء الاستقامة الحقيقية، ومعدّل النهار الاعتدال الجمعي الكمالي، فيه ظهور نور دين التوحيد الإلهي، وانفلات ظلام الشرك الإبليسي، وانقماع الباطل الوهمي بالكلية، إذ به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً»⁽¹⁾.

المشهد الثاني: الحكم بالواقع لا بالظاهر

تشير بعض النصوص إلى أنّ المجتمع المهدوي، هو مجتمع لا يمكن فيه إخفاء الجرم والهتك والقبائح من الأفعال، بل هو مجتمع يراد به أن يكون صافياً من القبائح من الأفعال والسلوكيات، لا على مستوى الظاهر فقط، بل على مستوى الحقيقة. وبعبارة أوضح، إنّ القانون الإسلامي قائم على استئصال المفاسد الاجتماعية التي أقيم عليها بيّنة ودليل ظاهري، كما هو الحال في المحاكم، حيث إنّ أحداً لو ادّعى أنّ شخصاً آخر قد سرق مالاً، فلا يحكم على المدّعى عليه بالسرقة إلاّ في حال الإتيان بالبيّنة التي تدينه، فإنّ لم يؤت بها، حُكم ببراءة المدّعى عليه، وإن كان بحسب الحقيقة سارقاً، وهذا ما يسمّى حكم بالظاهر وبالبيّنات، وهذا الأمر جرى عليه الأوصياء عليهم السلام، فهو يحمي الظاهر الذي عليه الناس، دون تجلية وإظهار للباطن والحقيقة - بالمعنى الذي ذكرناه - أمّا في زمن المهدويّة، فقد أشارت بعض النصوص الموثّقة والمعتبرة إلى أنّ الإمام

1 - صدر الدين شيرازي محمد بن ابراهيم. 1366. تفسير القرآن الكريم. قم - إيران: بيدار،

الجزء السادس، صفحة 50-51.

المهدي عليه السلام يسعى لقطع مادة الفساد ولو لم تأت عليها البيئات والشهادات، أي وإن لم يكن لها حكم في الظاهر يدين مرتكبها، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: دَمَانَ فِي الْإِسْلَامِ حَلَالٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْضِي فِيهِمَا أَحَدٌ بِحُكْمِ اللَّهِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - الْقَائِمَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَيَحْكُمُ فِيهِمَا بِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُرِيدُ عَلَى ذَلِكَ، بَيْنَهُ الزَّانِي الْمُحْصَنُ يَرْجُمُهُ وَمَنْعُ الزَّكَاةِ يَضْرِبُ رَقَبَتَهُ»⁽¹⁾.

وهذه الرواية، وإن كانت في مورد "الزنا ومنع الزكاة"، إلا أن بعض المحدثين ذكر ما لفظه "ورد به الأخبار المتواترة بأنه إذا ظهر القائم صلوات الله عليه يحكم بحكم آل داود ولا يسأل بيته"⁽²⁾.

المشهد الثالث: تخرج الأرض بركاتها

المشهد الثالث من مشاهد اليوتوبيا المهدوية هو أن الأرض تخرج بركاتها وكنوزها، وجاء في بعض النصوص «عَنْ أَبِي أَحْمَدَ مُحَمَّدَ بْنِ زِيَادِ الْأَزْدِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ سَيِّدِي مُوسَى بْنَ جَعْفَرَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً⁽³⁾ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّعْمَةُ الظَّاهِرَةُ الْإِمَامُ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنَةُ الْإِمَامُ الْغَائِبُ فَقُلْتُ لَهُ وَيَكُونُ فِي الْأَيَّامِ مِنَ الْغَائِبِ قَالَ: نَعَمْ يَغِيبُ

-
- 1 - ابن بابويه محمد بن علي. 1395. كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق، الجزء الثاني، صفحة 671.
- 2 - مجلسي محمد تقي بن مقصود علي. 1406. روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه. Vol. 6. ايران :- بنيا د فوهنگ اسلامي كوشانپور، الجزء 6، صفحة 59.
- 3 - لقمان: ٢٠.

عَنْ أَبْصَارِ النَّاسِ شَخْصُهُ وَ لَا يَغِيبُ عَنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ذِكْرُهُ وَهُوَ الثَّانِي عَشَرَ
مِنَّا يَسْهُلُ اللَّهُ لَهُ كُلُّ عَسِيرٍ وَيَدْلُلُّ لَهُ كُلَّ صَعْبٍ وَيُظْهِرُ لَهُ كُنُوزَ الْأَرْضِ⁽¹⁾.
ثم إنه يجب أن يعلم أن خروج بركات الأرض له ارتباط بالسلوك الإنساني
عليها، فالمجتمع الكافر الذي يكثر فيه الفسق والفجور، ينعكس جفافاً
وضيقاً وإمساكاً للأرض في بركاتها وخزائنها، بخلاف الإيمان والاستغفار
والاتصال بالله تعالى، وقد أشارت الآيات الكريمة إلى هذه الحقيقة، حيث
قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ
وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ نوح (10-12).

ومن هنا يمكن اعتبار هذا المشهد من مشاهد يوتوبيا المجتمع المهدي
على أنه نتيجة وحاصل من امتلاء الأرض قسطاً وعدلاً.

المشهد الرابع: عالمية المجتمع المهدي

من مشاهد اليوتوبيا المهديّة أنّها عالميّة الانتشار والأثر، وقد وردت في
ذلك روايات معتبرة، نورد منها:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الْأئِمَّةُ بَعْدِي اثْنَا عَشَرَ أَوْلَهُمْ أَنْتَ يَا عَلِيُّ
وَأَخْرَهُمُ الْقَائِمُ الَّذِي يَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَدَيْهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا»⁽²⁾.

1 - ابن بابويه محمد بن علي . 1395 . كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق،
الجزء الثاني، صفحة -369 368.

2 - ابن بابويه محمد بن علي . 1395 . كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق،
الجزء الأول، صفحة 282.

عن الإمام الصادق عليه السلام: فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة (33). فَقَالَ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ وَلَا يَنْزَلُ تَأْوِيلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجَ الْقَائِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِذَا خَرَجَ الْقَائِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَبْقَ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا مُشْرِكٌ بِالْإِمَامِ إِلَّا كَرِهَ خُرُوجَهُ حَتَّىٰ أَنْ لَوْ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُشْرِكًا فِي بَطْنِ صَخْرَةٍ لَقَالَتْ يَا مُؤْمِنٌ فِي بَطْنِي كَافِرٌ فَكَسِرْنِي وَأَقْتَلَهُ. ⁽¹⁾

وهذا المشهد يمكن اعتباره أيضاً من متفرعات المشهد الأول الذي ورد فيه "يملاً الأرض.." حيث إنَّ المراد من الأرض عندئذ هو ما يشمل كلِّ بقاعها، وهذه النصوص أيضاً مؤيدة لمعنى العدل الشامل للعدالة على مستوى القيم والعقائد، حيث أشارت إلى أنَّها تشمل نفي الكفر والجحود من العالم أيضاً.

خاتمة

يظهر من هذا الفصل الذي بسطنا فيه الكلام حول الرؤية الدينية النقلية فيما يتعلق باليوتوبيا والمجتمع المثالي المهدوي، أنَّ ما يطرحه النقل من القرآن وسائر النصوص الدينية - في نهج البلاغة وسائر المتون الحديثية- يتطابق مع ما أرشد إليه العقل من كون الشاكلة النهائية للمجتمع في آخر الزمان هي شاكلة العدل والاستقامة في الشؤون الإنسانية كافة، وهذا هو غاية العناية والجود الإلهيين في خلق العالم كما دلَّ عليه العقل.

1 - ابن بابويه محمد بن علي . 1395. كمال الدين و تمام النعمة، مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة 670.



الفصل الثاني:

اليوتوبيا المهدوي في مقابل اليوتوبيات العالمية

◀ المبحث الأول:

أنماط اليوتوبيا وعناصرها

● أولاً: المصطلح والبداية

شكل مصطلح « اليوتوبيا » في الفكر العالمي عموماً والفكر الأوروبي الغربي خصوصاً إشكالية في «التعريف»، حيث نجد أن الكتاب والباحثين في هذا المجال وجدوا تضارباً في المعنى المقصود من هذا اللفظ المأخوذ تارة من « يوتوبيا » - بمعنى اللامكان - أو من «أوتوبيا» - بمعنى المكان الجميل⁽¹⁾، وكذلك نجد الأمر مماثلاً في تعريبه بالـ «طوباوية» بالنسبة إلى اللغة العربية⁽²⁾، ولا نجد من ضرورة للبحث في هذه المسائل الاصطلاحية بعد وضوح أصل المقصد الذي يُجمع عليه أغلب الكتاب اليوتوبيين أو الذين كتب حول الفكر اليوتوبي، إذ إنهم متفقون على أن اليوتوبيا هي سردية أدبية أو فلسفية أو اجتماعية لتصوير مجتمع متعالٍ من حيث الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية.

نعم، إنَّ أوَّلَ مَنْ استعمل هذا الاصطلاح هو توماس مور (1535) الذي

1 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، ترجمة: ضياء رواد، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، 2016، صفحة 10.

2 - مجموعة مؤلّفين، اليوتوبيا والفلسفة، الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة، الرباط- المغرب، 2014، صفحة 14.

كتب كتابه الشهير بهذا العنوان، واصفاً جزيرة مثاليّة بنمط أدبي يشير إلى طبقات المجتمع وحياته اليوميّة وسائر التفاصيل الاجتماعيّة التي تسوده، ولكن لا شكّ عند المراجعة لمباحث الفلسفة بالخصوص أنّ أصل التفكير اليوتوبي لم يبدأ من توماس مور، بل هو ضارب في عمق التاريخ الفكري للبشريّة، فإنّ «فكرة العالم المثالي أو الفردوس الأرضي أو اليوتوبيا كما صارت تسمّى منذ صاغ توماس مور هذه الكلمة، فكرة راودت خيال الإنسان من قديم الزمان وتناولها الفلاسفة والمفكّرون وقدّموا صوراً مختلفة»⁽¹⁾.

ولكن يبقى السؤال الذي يكاد يجمع على جوابه كلّ من حلّل ظاهرة الأدب والفكر اليوتوبي، وهو: ما هي أسباب ظهور هذا النمط من الكتابة؟ لماذا سعى بعض الكتاب والفلاسفة لتصنيف كتب ورسائل يصفون فيها مجتمعات مثاليّة؟

الجواب هو:

عدم الرضا عن الواقع الموجود، وإطلاق العنان للخيال الفلسفي والأدبي لاقتناص نماذج اجتماعيّة واقتصاديّة تتعرّى عن النقائص التي ابتليت بها المجتمعات والدول التي عاش فيها المفكّر أو الفيلسوف اليوتوبي، وبحسب بعض الكتاب "لا يمكن فهم التفكير اليوتوبي، قديمه وحديثه، حتّى نضعه في سياق التطوّر التاريخي والاجتماعي لنعرف أنّه

1 - توماس مور، يوتوبيا، ترجمة: أنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة- مصر، صفحة 13.

كان صرخة احتجاج على أوضاع وظروف اجتماعية ظالمة وفسادة⁽¹⁾، وبعض آخر قال « كل أشكال اليوتوبيا تطرح أسئلة، فهي أسئلة تسأل إن كان يمكن تحسين الطريقة التي نحيا بها، وتجب بأنه يمكن ذلك، ويقارن أغلبها بين الحياة الحالية والحياة في اليوتوبيا، وتوضح أوجه الخطأ في الطريقة التي نحيا بها الآن، وبذلك تقترح ما ينبغي القيام به لتحسين الأوضاع»⁽²⁾.

ولكن في الواقع إن هذا التعميم للكتابات اليوتوبية لا يخلو من خلل ولا يسلم من النقد، وخاصة لو ضمنا - على ما سيأتي عند التصنيف والترتيب- اليوتوبيات الدينية، والتي تجعل اليوتوبيا صورة للمجتمع مرادة من قبل الله تعالى، وهي صورة قبل التجارب الاجتماعية التي يعيش فيها المفكر. وبعبارة أخرى، إن اليوتوبيا الدينية التي تستمد وجودها من الفكر الديني - الأعم من كونه من النص أو العقل الفلسفي- ينطلق من اليوتوبيا ليحكم على الواقع الاجتماعي لا العكس، بحيث يكون النفور من الواقع الاجتماعي داعياً للتفكير في يوتوبيا هي صورة بديلة عن الواقع، نعم لا يبعد أن يكون الفكر غير المنطلق من المبدأ المعرفي الديني كما ذكر سابقاً، ولكن لا يمكننا استبعاد السرديات والمشهديات اليوتوبية الدينية عن مسرح الفكر اليوتوبي الإنساني.

1 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 1997، صفحة 10.

2 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، 12.

● ثانيًا: أنواع تصنيفات الكتابات اليوتوبية

إذا راجعنا الكتب المؤرّخة للفكر اليوتوبي العالمي، أو للكتب نفسها التي تعتبر منابع لليوتوبيات، نجد أننا أمام سيل كبير من الكتابات التي تتخذ ألوانًا من الأساليب وطرق البيان تارة ومن المضامين والمناهج تارة أخرى والتطور التاريخي ثالثًا، فهذه ثلاثة معايير للتقسيم.

التقسيم الأول: التقسيم وفق الأسلوب

نجد أن بعض اليوتوبيات اتخذت نمطًا أدبيًا سرديًا أو حواريًا لبيان المدينة الفاضلة والمجتمع المثالي الذي يجب أن يكون عليه البشر، ومثاله يوتوبيا «توماس مور» القصصية لا على نحو الحصر، حيث يذكر في روايته لقاء الرحالة البرتغالي رافيل هيثلوداي بالدولة المثالية التي قابلها خلال إقامته مدّة خمس سنوات في جزيرة يوتوبيا.

بينما نجد أن الأدب اليوتوبي اتخذ مسارًا تجريديًا فلسفيًا في بعض الكتابات الأخرى، مثل «آراء أهل المدينة الفاضلة» للحكيم الإسلامي أبي نصر الفارابي، حيث يذكر في هذا الكتاب ابتداءً مباحث حول الله تعالى وأسمائه وصفاته ومن ثمّ النفس وقواها، حتّى يصل إلى المدينة الفاضلة، وأهمّ ركن فيها هو «الإمام الرئيس» وي طرح «مضادّات المدينة الفاضلة»؛ أي أنماط المدن التي هي «ديستوبيا» مقابل «اليوتوبيا- المدينة الفاضلة»، قال «المدينة الفاضلة تضادّها

المدينة الجاهليّة، والمدينة الفاسقة، والمدينة المتبدّلة والمدينة الضالّة»⁽¹⁾، وسيأتي عند بيان التقسيم وفق المضمون أهمّ ما ذكره في هذا الكتاب.

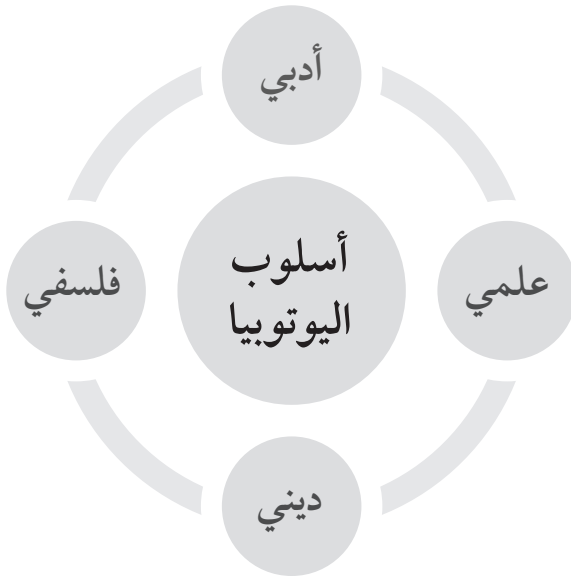
وثالثاً نجد اليوتوبيا ذات الأسلوب الديني في «مدينة الله» عند أوغسطين، حيث يقول في مقدّمة المجلّد الثاني لها «إننا نسَمّي مدينة الله تلك التي يشهد لها الكتاب المقدّس، بما له من سلطنة إلهيّة قلّده إيّاها العناية الإلهيّة ففاقت كلّ ما أنجزته سائر الأمم، وسيطرت على كلّ نوع من القوى العقلية»⁽²⁾.

ورابعاً، نجد أنّ اليوتوبيات المعاصرة والحديثة هي يوتوبيات علميّة واجتماعيّة من حيث أسلوبها، كاليوتوبيا البيئيّة أو اليوتوبيا النسويّة في الحركات الاجتماعيّة المتأخّرة التي يشهدها عصرنا، بل إنّ «اليوم يعدّ النوع الأدبي الفرعي المسمّى الإيكوتوبيا أو اليوتوبيا البيئيّة [...] أقوى تيار يوتوبي»⁽³⁾، وصحيح أنّ هذه الحركات الاجتماعيّة - البيئيّة والنسويّة وغيرهما - لم تستعمل مصطلح اليوتوبيا لتوصيف جوهر حركتها، ولكنّها تحمل على أكتفها عبء تصوير المشهد اليوتوبي المثالي للمجتمع الذي يأملونه، ويكون - كما ذكرنا - ما ينظّرون له نوعاً من مواجهة لواقع غير مرضي عندهم.

1 - أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، بيروت - لبنان، 1986، صفحة 131.

2 - أوغسطين، مدينة الله، ترجمة: الخورأسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 2007، الجزء الثاني، صفحة 5.

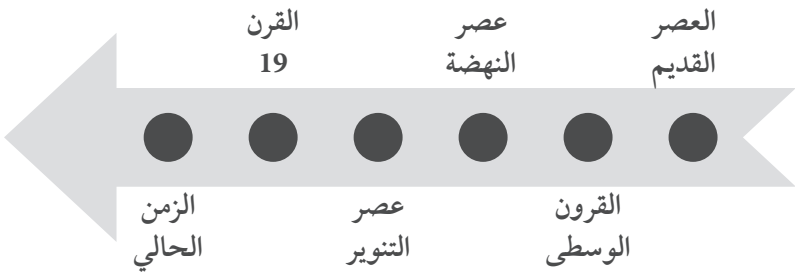
3 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، 37



هذا التقسيم وفق الأساليب لا يهتم غرضنا الأساسي فيما نريده من هذا الكتاب الذي بين أيدينا، ولذلك أوردناه موجزًا، ولعله ينفع الكتابات الأدبية المقارنة ودراسة ألسنيّات النصوص اليوتوبيّة، ولكنّ حيث كان غرضنا هو بيان المائز الأساسي بين اليوتوبيا المهدويّة وسائر اليوتوبيات، فلا نجد ضرورة لاتخاذ التقسيم وفق الأسلوب والبيان معيارًا لنا، بل إنّ ما يخدم مشروعنا البحثي هنا هو الجهة المضمونيّة.

التقسيم الثاني: التقسيم وفق التطوّر التاريخي والسياقات السياسيّة
لماذا ساد التقسيم الزمني للكتابات اليوتوبيّة؟ يتّضح ممّا سبق أنّ أغلب المؤرّخين لليوتوبيات ربط هذا النوع من الكتابات بالتطوّر الاجتماعيّ

والسياسي الذي يعيشه كاتب النصّ اليوتوبي، ولذا فإنّ أكثر ما يفيدنا إيّاه التقسيم الزمني، هو مقارنة تصوّر حول اليوتوبيا مع الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة السائدة في زمن النصّ المكتوب، وهذا ما سنحاول بيانه بشكل موجز في هذا القسم، ونترك الكلام التفصيلي حول المضمون إلى التقسيم الثالث الآتي - أي التقسيم وفق المفاصل المركزيّة للأطروحات اليوتوبيّة-. وعلى أيّ حال، إذا أردنا أن نطرح خطأً زمنيّاً لهذا النوع من الكتابات، فإنّنا يمكن تصنيفه وفق الآتي:



1 - يوتوبيات العصر القديم

قبل البدء بذكر نماذج اليوتوبيات في العصور القديمة، لا بدّ من تسجيل ملاحظة على كثير من المصنّفات التي تؤرّخ للفكر الإنساني عموماً، ولليوتوبيات خصوصاً، حيث نجد تجليّاً واضحاً لاختزال الفكر العالمي ببقعة جغرافيّة هي أوروبا أو ما يعبر عنه عادة «الغرب»، في حين أنّ التاريخ العام للأفكار لم يكن بهذا النوع من التمركز الذي يظهره بعض الكتاب، ولذا فإنّنا نجد مثلاً بعض الكتب عندما أرادت أن تؤرّخ لنماذج اليوتوبيا في العالم القديم، قصرت نظرها على ما طرح في الفلسفة اليونانيّة، من قبيل

ما جاء في جمهورية أفلاطون أو «سياسة» أرسطو، في حين نجد أن العالم الشرقي ابتداء من الكونفوشوسية الصينية ومروراً بالديانات والفلسفات الهندية وغيرهما، قد كان لديهم تصوّرات عن السعادة والعدالة والمجتمع المثالي.

وبناء على ذلك، إنَّ اليوتوبيات المطروحة في الفكر العالمي القديم يمكن تقسيمها إلى قسمين، الأول هو ما جاء في الديانات أو المذاهب الأخلاقية الشرقية -الصينية والهندية بشكل أساسي-، والثاني هو ما جاء في المذاهب الفلسفية الإغريقية والإسبرطية في الفضاء الأوروبي، وبحسب بعض الباحثين "نجد أنَّ حكماء الشرق القديم قد سبقوا فلاسفة اليونان بالعديد من النظريات والأفكار السياسية، [والتي تمثل اليوتوبيا بنظرهم] ومنها تقسيم المجتمع إلى طبقات ثلاثة، وأنَّ الطبقة الحاكمة هي أهل العلم والأخلاق، وأنَّ أفكارهم لم تقتصر فقط على أساطير الكون أو العالم أو الآلهة، بل تضمّنت معظم الموضوعات (أي الأنماط) الكونية والاجتماعية والسياسية"⁽¹⁾.

نعم، نجد أنَّ اليوتوبيات الأساسية تمَّ تأسيسها على يد أفلاطون في كتاب "الجمهورية" وأرسطو في كتاب "السياسة" في القرون الخمسة قبل الميلاد وبلوتارك في القرن الأوّل الميلادي، وأخيراً أرسطوفانيس الذي تعتبر اليوتوبيا التي قدّمها أشبه بمسرح ساخر، هي أهمّ اليوتوبيات التي حظيت باهتمام الكتاب، وبالخصوص ربط ظهورها بالأحداث التي

1 - مجموعة مؤلّفين، اليوتوبيا والفلسفة، مصدر سابق، صفحة 46

شكّلت باعثًا للكتابة حول المجتمع المثالي، ولعلّ الحدث الأساسي الانعطافي هو هزيمة الإغريق على يد إسبرطة، مما أدّى إلى تأثر عقل اليونان المغلوب بالنموذج التنظيمي للغالب- أي إسبرطة- ومن هنا ”عندما شرع أفلاطون في بناء مدينته المثاليّة، اتّجه إلى إسبرطة واتّخذها نموذجًا له. وهو بالطبع لم يقلّد هذا النموذج تقليد العبيد، ولكنّ جمهوريّته أشبه بالتنظيم التسلّطي لإسبرطة منها بالتنظيمات الحرّة التي تمتعت بها المدن اليونانيّة الأخرى في غضون القرون السابقة“⁽¹⁾.

واللافت أيضًا أنّ الافتراق بين التيّار السفسطائي والتيار الفلسفي في تلك العصور، كان منعكسًا على تصوراتهم للمدينة الفاضلة أيضًا، ولكن لم يكن النقاش بين هذين التيارين نقاشًا عقليًا إيستمولوجيًا فقط⁽²⁾، صحيح أنّ التيار السفسطائي يشتهر عنه أنّه كان مشككًا أو منكرًا للواقعيّة أو للعلم وإمكان المعرفة، وأنّ الفلاسفة السقراطيين حاولوا التغلّب عليهم بالمحاورات والمحاجمات المختلفة، لكنّ هناك سياق اجتماعي سياسي ألقي بظلاله على هاتين الفئتين - السفسطائيين والفلاسفة- بحيث نجد أنّ تصوّراتهم عن المجتمع الذين يعيشون فيه وعن المجتمع الأفضل والسعادة القصوى أيضًا كانت بارزة في مناقشاتهم، بل يمكن أن يقال أيضًا إنّ نقاشاتهم النظرية الدقيقة هي في طول اختلاف تصوّراتهم عن الحياة والمجتمع، ولهذا بحث تفصيلي ليس هنا محلّه.

1 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مصدر سابق، صفحة 31.

2 - المصدر نفسه.

2 - يوتوبيات القرون الوسطى

في يوتوبيات القرون الوسطى، وهي قرون ظلام أوروبا كما تسمّى، والتي ابتدأت من القرن الرابع الميلادي حتى القرن الرابع عشر، حيث سادت فيها حاكمية الكنيسة، فإننا نجد أنّ أغلب اليوتوبيات كانت ذات طابع كنسي مسيحي، وبالخصوص ما نجده عند الفيلسوفين: أوغسطين وتوما الأكويني، حيث كتب الأوّل كتابه المعروف "مدينة الله"، والذي دوّن فيه أسس الحكم والمجتمع المثالي مقابل مدينة الشيطان، وكتب الثاني كتابه "أصول الحكم" مبيّنًا أبعاد الحكم النموذجي، والذي يمكن اعتباره "يوتوبيا" خاصّة به.

والسياق السياسي الاجتماعي الأساس الذي حكم هذه اليوتوبيات هو الدفاع عن الدين المسيحي في قدرته على بناء نموذج يلائم الحياة الأرضية - وإن كان هناك شكّ عند أوغسطين كما سنجد في تحقيق اليوتوبيا في الأرض وعلى يد الإنسان؛ لأنّ الحياة الأرضية نشأت من خطيئة آدم ومطبوعة في جوهرها على عدم المثالية.

في المقلب الآخر من العالم، نجد أنّ القرون الوسطى في بدايتها ترافقت مع ظهور الدين الإسلامي في شبه الجزيرة العربية، والذي بدأ معه النموذج المهدوي أو نموذج "آخر الزمان" حول اليوتوبيا، وهو ما حظي باهتمام أقلّ من قبل المؤرّخين الغربيين، واللافت أنّ بعضهم وضع كلّ ما هو غير غربي ضمن عنوان "اليوتوبية في الثقافات الأخرى"⁽¹⁾ وكأنّها أمور تقع على هامش الحراك العالمي للأفكار.

1 - لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، 69.

3 - يوتوبيات عصر النهضة

عصر النهضة هو العصر الممتد من القرن الرابع عشر الميلادي للقرن السابع عشر، وهو بالفعل عصر صعود اليوتوبيات في الفكر الغربي، حيث نجد أنَّ مصطلح «اليوتوبيا» قد نُحِت في هذا العصر على يد توماس مور، واستمرَّت التصنيفات من بعده عند توماسو كامبانيللا في كتاب «مدينة الشمس» وفالتين أندريا في كتاب «مدينة المسحيين».

ومن ناحية السياق الاجتماعي والسياسي، فقد تأثرت اليوتوبيات في هذا العصر بكونها ردود فعل على حركة عصر النهضة والإصلاح الديني، «فلقد صاحب الحركة الفنيّة والعملية الرائعة لعصر النهضة تفكُّك المجتمع، فتأكيد فردية الإنسان، وتطوير ملكاته النقدية، وتوسيع نطاق المعرفة، قد عملت كلّها على تدمير الروح الجماعية للعصور الوسطى، وقضت على وحدة العالم المسيحي»⁽¹⁾، فجاءت هذه اليوتوبيات - على اختلاف مضامينها وعناصرها كما سنشير إليه لاحقاً - ساعية لخلق وحدة جديدة للعالم المسيحي كما كانت ناقدة للنزعة الفردية المتطرّفة في هذا العصر، مضافاً إلى كونها تمثل إجابات على أسئلة يومية كانت مطروحة في ذلك العصر، من قبيل قوانين العقوبات والإصلاح الديني وطاعة الملك وغير ذلك، وبدأ الحديث عن نقد الملكية الفردية مقابل الملكية الاجتماعية وملكية الدولة، والتي ستشكّل فيما بعد أساساً لانطلاق اليوتوبيا الماركسية والشيوعية.

ولا يفوتنا أن نذكر أخيراً "أطلنطا الجديدة" والتي تعتبر يوتوبيا فرانسيس

1 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مصدر سابق، صفحة 95.

بيكون الذي يوصف بأنه أحد آباء العلم التجريبي، والذي تميّز بطرح محورية العلم الطبيعي في كونه أساساً لتشكّل المجتمع المثالي كما سنشير إليه لاحقاً.

4 - يوتوبيات عصر التنوير

عصر التنوير هو الذي يطلق عادة على الفترة الممتدة من النصف الأخير من القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، وانصبغت هذه الفترة بمجموعة من الأفكار التي تتمحور حول سيادة العقل وقيم الحرية والتسامح ورفض السلطة السياسيّة الدينيّة، ولذا نجد أنّ اليوتوبيات المطروحة في هذا العصر كانت تصويراً لعالم مليء بالحيات وعدم الانقياد لأيّ منظومة تحدّ من الحرية، وبحسب بعض الكتاب «سعى القرن الثامن عشر إلى تحقيق قدر أكبر من الحرية، وبخاصّة فيما يتعلّق بالعلاقات الجنسيّة [...] وسخطوا سخطاً شديداً على القيود التي فرضتها عليهم الأخلاق الدينيّة»⁽¹⁾. ويمكن للباحث أن ينظر إلى أهمّ تيارات الفلسفة العامّة في هذا العصر، والتي تمثّلت بمثل هيوم، والذين كان فكرهم انقلاباً على الاعتقادات الميتافيزيقيّة فكان سياق اليوتوبيا في هذا الإطار نفسه.

5 - يوتوبيات القرن التاسع عشر

يمكننا اعتبار القرن التاسع عشر هو امتداد من حيث الاهتمامات لأواخر عصر التنوير، حيث صار التوجّه أكثر إلى إبعاد «المعنى» عن الحياة الإنسانيّة

1 - المصدر نفسه، 262.

والتوجه إلى العقلنة وتهميش الميتافيزيقيا والإلهيات والرؤى الدينية، وهذا ما سنتحدث عنه في التقسيم الثالث، ولكنَّ الحدث الأهمَّ هو أنَّ القرن التاسع عشر شكّل بروزاً لليوتوبيا الاشتراكية كحركة إصلاح اجتماعي، ونجد صعوداً لاستخدام مصطلح « اليوتوبيا » من قبل فريدريك أنجلز الذي كتب كتاباً يحمل عنوان «الاشتراكية: اليوتوبيا والعلم»، وبدأ بالتنظير لمجتمع خالٍ من الطبقات، والذي يميّز أنجلز هو توصيفه الدقيق لبعض اليوتوبيات السابقة له، والتي كانت بجوهرها تسعى إلى نوعٍ من الاشتراكية بين البشر. وبالتالي، فالسياق الاجتماعي الأساسي هو ظهور الاشتراكية وبناء اليوتوبيا عليها.

6 - اليوتوبيات المعاصرة

إنَّ الواقع المعاصر يشهد بالفعل تراجعاً لنمط اليوتوبيات السابقة، ولا نجد شيئاً يذكر حول تصوير مشاهد مثالية لمجتمعات تعيش يوميات يوتوبية، ولذلك أسبابه السياسيّة والاجتماعيّة ترجع إلى ما شهده القرن الماضي وقرننا الحالي من حروب - لا سيّما الحربين العالميتين - وانتشار للأوبئة والبطالة والمجاعة والفقر وظهور أزمات البيئة وعدم المساواة بين الأعراق وظهور حقوق الأقليات وغير ذلك من التغييرات الاجتماعية التي أَلقت بظلالها على نوع التحركات الاجتماعية التي اتخذت في أغلبها نمطاً متمرداً على واقع معاش، وهذا أدّى بطبيعة الحال إلى أن تنشأ شعارات تمثل روح يوتوبية قومية أو بيئية أو جندرية أو نسوية وما إلى ذلك.⁽¹⁾

1 - راجع: لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، مصدر سابق، -37 35.

التقسيم الثالث: التقسيم وفق مضامين اليوتوبيات

ما ذكرناه اختصاراً في التقسيم السابق لليوتوبيات يُظهر بشكل واضح أنّ العقل اليوتوبي كان منشغلاً بالواقع الذي يعيشه الكاتب أو الأديب أو الفيلسوف الذي يكتب لنا نموذجاً من مجتمع لا يعيشه ويأمل أن يتحقّق في المستقبل، فهزيمة أثينا كانت عاملاً مؤثراً في تصوير اليونانيين مدينتهم الفاضلة المحاكية للتنظيم الاجتماعي والسياسي لإسبرطة، وكذا صعود الكنيسة إلى الحياة السياسيّة كان له دور في بناء مشهديّة «مدينة الله» في القرون الوسطى، وصعود حركة الإصلاح الديني وتفكك وحدة المجتمعات أيضاً كان من العناصر المحرّكة لنشوء يوتوبيا عصر النهضة، وصولاً إلى عصر التنوير وصعود العقلانيّة النافية للبعد الميتافيزيقي واليوتوبيا المماشية أو المعارضة له، إلى ظهور الاشتراكيّة وما بعدها في عصرنا الحالي من حروب عالميّة أثّرت في تراجع اليوتوبيات العالميّة والمتفائلة إلى يوتوبيات منحسرة وضيقة الأبعاد، هذا كلّ كان سيراً مقايماً للفكر اليوتوبي مع الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة، وأما إذا أردنا أن نقسّم اليوتوبيات لا على وفق السير التاريخي، بل بناء على ما طرحه من مضامين وأفكار تشكّل مفاصل المجتمع المثالي بغضّ النظر عن زمن وسياق طرحها، فإننا نجد أنفسنا أمام عدّة أقسام منها:

1 - يوتوبيا الحياة اليوميّة والبنية الفوقيّة:

ونقصد بها أصناف اليوتوبيات التي اهتمت بشكل كبير بوصف مرافق الحياة التي يعيشها اليوتوبيون في يومياتهم، وكيفية تمثّل المساواة فيما

بينهم، والعلاقة بين الحاكم والمحكومين والمشهد الاقتصادي اليومي، من قبيل طعامهم وشرابهم ولباسهم، وأساليب العقوبة وغير ذلك، يقع على رأس هذا النوع من اليوتوبيات ما يسمّى بالأدب اليوتوبي مثل الذي كتبه توماس مور، حيث «يحوي الكتاب الثاني من (يوتوبيا) وصفًا مفصلاً لمعظم نواحي الحياة في الجزيرة»⁽¹⁾، وإن كان في جزء يسير منه يبحث الأسس الفلسفية والأخلاقية لهذه الحياة.

وكذا يمكن ضمّ سائر يوتوبيات عصر النهضة إلى هذا الصنف من قبيل "مدينة الشمس" لكامبانيا وغيره.

وفي الحقيقة إنّ هذا الصنف من المضامين اليوتوبية التي تُغرق في وصف الحياة اليومية لليوتوبيين، لا نجد أنّه يفيدنا فيما نحن فيه في هذا الكتاب؛ وذلك لأنّ من شرط المقارنة بين أي أمرين، وجود جامع مشترك تتمّ على أساسه المقارنة، فلا يمكن مقارنة اللون بالوزن لأنّهما من مقولتين مختلفتين، ونحن وفق ما أسّسناه في الباب الأوّل حول اليوتوبيا المهدوية، لم نصل إلى توصيف دقيق لمجتمع المهدوية في يومياتها، من قبيل اللباس والمأكّل والمشرب وطبيعة الزراعة وغير ذلك؛ لأنّنا لم نكن بصدد بيان تخيلي محض، بل كنّا بصدد الانتقال ممّا يفيد العقل الفلسفي الإسلامي والنصّ الديني القرآني والروائي في هذا الخصوص، وكلاهما لا يعطيان هذا الحجم من التفاصيل، فالـيوتوبيا المهدوية لا تقدّم لنا وصفًا شاملاً وعمامًا لتفاصيل الحياة اليومية للمجتمع المهدوي، وإنّ كنّا نجد بعض التفاصيل

1 - توماس مور، يوتوبيا، مصدر سابق، صفحة 61.

في بعض النصوص التي لا تنهض لبناء نموذج شامل لمرافق الحياة، ولذا لن يكون هذا الصنف من الأدب اليوتوبي محلّ نظر لدينا. نعم، في بعض الفصول التي كتبها أدباء يوتوبيون نجد أنّهم تعرّضوا لفلسفة القيم والأخلاق وموقع الإيمان والعلم في مجتمعهم اليوتوبي، فهذا ما سنشير إليه، ولكن يدخل في القسم الثالث من هذه الجهة.

2 - اليوتوبيا المتعدّدة

نقصد من اليوتوبيا المتعدّدة تلك التي اهتمت ببناء منظور غير اجتماعي عام للمجتمع المثالي، وذلك مثل اليوتوبيا البيئية - الإيكوتوبيا- واليوتوبيا النسوية، والتي انتشرت بشكل كبير في القرن الحالي والماضي، حيث نجد أنّ فعل السرد والتفكير اليوتوبي كان مختصراً على أقليات اجتماعية أو على أعراق محدّدة أو إثنيات أو فعاليات اجتماعية خاصّة، وهو أيضاً لا يكون أحد طرفي المقارنة بينه وبين اليوتوبيا المهدوية للسبب نفسه الذي ذكرناه في القسم السابق، مضافاً إلى أنّ هذا النوع من اليوتوبيات لا يصبّ في عالميّة القضية المهدوية ونظرها إلى التغيير الشامل وتحقيق العدالة في الأرض بل على جميع مستويات الإنسان. وبعبارة أخرى، إنّ اليوتوبيا المهدوية، التي صورناها في الباب الأوّل، محلّ نظرها "العالم" والإنسان بما هو إنسان، لا قضية خاصّة وإنسان خاصّ.

3 - يوتوبيا البنية التحتيّة

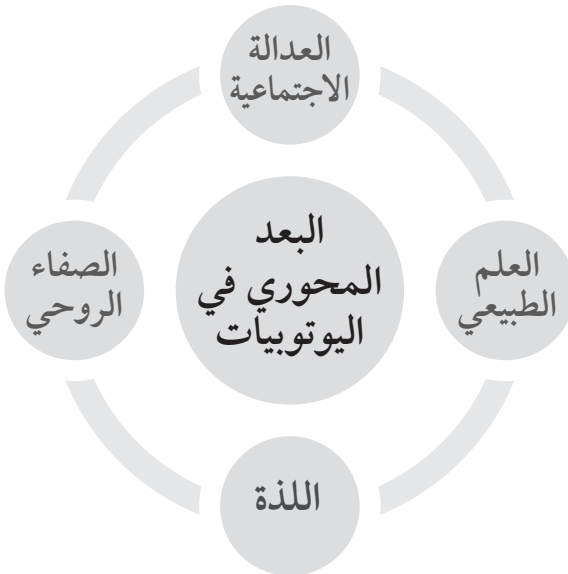
إنّ كلّ اليوتوبيات التي ذكرناها تحتوي - عن وعي وتنصيب أو

عن غير وعي - بنى تحتية تكشف العقل الفلسفي الذي يكمن في عقل كاتبه لما يراه من معنى «المثالية» في مجتمعه المثالي، فاليتوبيا التي تصوّر الحياة اليومية أو تلك التي تعني بموقع البيئة في حياة البشر، كلّها تبنتني على مواقف فلسفية عند كاتبها حول الرقيّ والتعالّي الاجتماعي، ولكن هناك أنماط من اليتوبيات كان هذا الجانب التحليلي بارزاً فيها، لا سيّما اليتوبيات الدينية كمدينة الله للقديس أوغسطين وأصول الحكم لتوما الأكويني، وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي، فهؤلاء في الحقيقة جعلوا جلّ جهدهم في بيان البنى التحتية للمجتمع المثالي بناء على تصوّراتهم، من معنى العدل، والحرية، ومن قبيل دور الدين في المجتمع اليتوبي المتصوّر لديهم، ومن قبيل أسس شخصية الحاكم الوضع النفسي والمعرفي والمعنوي عند سكّان اليتوبيا، ولذا نجد أنّ هذا الصنف يتقاطع بشكل واضح مع ما قدّمناه في الباب الأوّل حول اليتوبيا المهدوية، ولذا سنّخذ هذا القسم طرفاً من أطراف المقارنة، فنيّن أسس البنى التحتية لهذه اليتوبيات - غير غافلين عن بعض البنى التحتية الملمّح إليها في القسمين السابقين - مع بيان المائز بينها وبين يتوبيا المهدوية، حتّى نخرج بنتيجة تمثّل الإجابة عن السؤال الآتي: ما هو الشيء المميّز في التصوير الإسلامي -العقلي والنصّي - ليتوبيا آخر الزمان؟ وبأيّ شيء يكون المجتمع المهدويّ يتوبيا خاصّة بالمسلمين عامّة وبالإمامية خاصّة؟ وهل يكون نموذجاً يتوبياً جديداً غير معهود في التصنيفات اليتوبية العالمية؟

◀ المبحث الثاني:

اليوتوبيا المهدوية ويوتوبيات العالم

إذا أردنا أن نأخذ المضمون الذي أبرزته مختلف اليوتوبيات، بغضّ النظر عن تسلسلها التاريخي، فإننا نجد أمرًا لافتًا فيها، وهو وجود أمر محوري في كلّ واحد منها، كان الأساس في بناء المدينة الفاضلة وفق التصورات المختلفة، وإذا أردنا أن نبين أهمّ هذه الركائز المختلفة، يمكننا جعلها ضمن أربعة محاور، يكون كلّ محور هو البعد الأساسي في نمط خاصّ من اليوتوبيات السابقة:



● أولاً: محورية العدالة الاجتماعية في اليوتوبيات اليونانية

1 - بيان المسألة:

في "جمهورية" أفلاطون⁽¹⁾، والذي هو نصّ مكثّف ومعقّد نوعاً ما، خاصّة أنّه محاوره كتبها أفلاطون بين سقراط وغيره، نجد أنّ التأسيس للمدينة الفاضلة بدأ بشكل محوري من تنفيذ سقراط لأنماط وصور العدالة التي يطرحها محاوروه ومن ثمّ تأسيس تصوّر جديد للعدالة التي تسود هذه الدولة أو المدينة المثلى.

يطرح «بوليمارخوس» تعريفاً للعدالة وأنه «مساعدة الأصدقاء والإضرار بالأعداء»⁽²⁾، وكذلك طرح آخرون أنّ العدالة هي إعطاء كلّ ذي حقّ حقه⁽³⁾، فيما ذهب آخرون إلى تعريفات أخرى لم يقبلها سقراط على ما نقله أفلاطون في هذه المحاوره⁽⁴⁾، وبعد مجادلات طويلة يبدأ سقراط

1 - ومن المتفق عليه، بوجه عام، أنّ الموضوعات الرئيسة التي تعالجها المحاوره في كتبها المختلفة هي:

1. الكتاب الأوّل: مقدّمة في الآراء الشائعة عن العدالة.
 2. الكتاب الثاني والثالث والرابع: العدالة في الدولة والفرد.
 3. الكتاب الخامس والسادس والسابع: نظم الدولة المثلى وحكم الفلاسفة.
 4. الكتاب الثامن والتاسع: تدهور المجتمع والفرد.
 5. الكتاب العاشر: الصراع بين الفلسفة والشعر.
 6. الكتاب العاشر: مصير الإنسان وخلود النفس. (راجع مقدّمة فؤاد زكريا لكتاب الجمهورية).
- 2 - أفلاطون، الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا، مؤسّسة هنداوي، القاهرة- مصر، 2023، صفحة 180.
- 3 - المصدر نفسه.
- 4 - مثل تعريف العدالة بأنها الخضوع لصالح الأقوى، راجع: المصدر نفسه 191.

بطرح نموذجه حول العدالة، ويتخذ طريقه أولاً بوصف العدالة في نطاقها العام المتحقق في المجتمع والدولة ثم يتنزل ليسقط المعنى الذي وصل إليه على شخصية الفرد، وبحسب قوله «أقترح أن نبحث عن طبيعة العدالة أولاً في الدولة، ثم نبحثها بعد ذلك في الفرد، فننتقل بذلك من الأكبر إلى الأصغر، ونقارن بين الاثنين»⁽¹⁾.

فما هي العدالة في الدولة؟ يطرح سقراط - وتبعاً له أفلاطون - مسيراً فكرياً يوصله إلى أن العدالة في حقيقتها هي أن يطبق الفرد العمل والوظيفة التي تملئها عليه طبيعته الخاصة، فالنجار إذا عمل بالنجارة، والحداد إذا عمل بالحدادة، والمدرس إذا عمل بالتربية والتعليم، ولم يحد أحد من هؤلاء عن وظيفته الخاصة النابعة من جوهره وطبيعته، فهذه هي العدالة في المجتمع المثالي، ولأجل الوصول إلى هذه النتيجة طرح المقدمات الآتية:

1 - إن التشكل الاجتماعي واجتماع الناس لأجل تشكيل مدينة أو دولة، إنما ينشأ من «عجز الفرد عن الاكتفاء بذاته وحاجته إلى أشياء لا حصر لها»⁽²⁾، فالفرد يحتاج إلى الطعام واللباس وإلى بيت يسكن فيه وإلى الأمن وغير ذلك، وهو - أي الفرد - عاجز عن القيام بنفسه بصناعة لباسه وطعامه وبيته وغير ذلك، فيحتاج إلى من يعاونه في تأمين احتياجاته. فالأساس الحقيقي الذي تقوم عليه الدولة هو الحاجة.

2 - وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن "يكون أحد الناس زارعاً، والآخر

1 - المصدر نفسه، 222.

2 - المصدر نفسه، 223.

نَسَاجًا، ولعلنا نضيف إلى ذلك حدًا، وصانعًا آخر للوفاء بحاجتنا المادية⁽¹⁾، ولكن على أي أساس يتم تقسيم العمل بين الناس؟
3 - الجواب هو «أننا لسنا جميعًا سواء، وإنما تتباين طبائعنا وتوجد بيننا فروق كامنة تجعل كلاً منا صالحًا لعمل معين»⁽²⁾.

وبعد مناقشات أخرى - لا تدخل في عمق ما نريده ههنا- ينتهي سقراط إلى أن «على كل فرد أن يؤدي وظيفة واحدة في المجتمع، هي تلك التي وهبته الطبيعة خير قدرة على أدائها [...] وقلنا إن من العدل أن ينصرف المرء إلى شؤونه، دون أن يتدخل في شؤون غيره [...] [وعليه] كمال الدولة هو تلك الفضيلة التي تجعل كلاً من الأطفال والنساء والعبيد والأحرار والصنّاع والحاكمين والمحكومين يؤدي عمله، دون أن يتدخل في عمل غيره»⁽³⁾.

2 - النقد في ضوء المهدوية

تقدّم في الباب الأوّل أن أهمّ بعد من أبعاد يوتوبيا المهدوية هو نشر العدل وامتلاء الأرض به، وأنّ العدالة المقصودة بما ينسجم مع الفكر الإسلامي، هو العدل في جميع مراتب الإنسانية؛ أي العدالة التي تشمل عدالة التوزيع والعدالة الاجتماعية، والتي تشمل أيضًا الاعتدال الاجتماعي والفردى على مستوى النظم الأخلاقي والروحي. وبعبارة أخرى، «الإنسان إذا ما انحرف

1 - المصدر نفسه 223.

2 - المصدر نفسه 224.

3 - المصدر نفسه 300.

عن جادة الصواب سواء انحراف عملي، أو انحراف روحي، أو انحراف عقلي، فمعالجة هذه الانحرافات بالمعنى الحقيقي هي إيجاد العدل لدى الإنسان، فعندما يعود الإنسان المنحرف خلقياً إلى جادة الاعتدال، فإن ذلك يعني تحقيق العدالة في داخله، وإذا ما طرأ أي انحراف أو سقم على عقائد الإنسان، فإن تعديل هذه العقائد المعوجة والسقيمة والعمل على تصحيحها وجعلها على الصراط المستقيم، يعدّ بسطاً للعدل على صعيد عقل الإنسان، ففي عصر ظهور المهدي الموعود- سلام الله عليه- الذي ادّخره الله، وبما أنه لم يتيسر لأحد من الأولين والآخرين - سوى الإمام المهدي الموعود- أن يبسط العدل في كل العالم⁽¹⁾.

ولنا أن تصوّر المجتمع المهديّ بناء على ذلك أنه مجتمع له هويته العقلية والروحية، وليس مجتمعاً ذا هوية اقتصادية أو سياسية فقط، وهذه الهوية الروحية والعقلية هي التي تظهر في الآخرة على أنها شاكلة وصورة الأمة الحقيقية، فيوم القيامة والآخرة هو "يوم تبلى السرائر" أي يوم ظهور الحقائق وانتفاء الاعتباريات والأوهام، وما يظهر في الآخرة هو حقيقة مترسّخة في النفوس، وقد صرح القرآن الكريم أنه كما أن للفرد حقيقة تتمثل بقيمه وأخلاقه وعقائده، وهي التي تظهر معه في الآخرة، كذلك إنّ للمجتمعات حقيقة تظهر في الآخرة، وقد بيّنا هذا الأمر في الباب الأوّل.

1 - خميني، روح الله، رهبر انقلاب و بنيانگذار جمهوری اسلامی ایران، صحيفة الإمام (ترجمه عربي)، 22 جلد، مؤسسه تنظيم و نشر آثار امام خميني (س) - ايران - تهران، چاپ: 1، 1429 ه.ق.، الجزء 12، صفحة 384

وبناء عليه، إنَّ كلَّ فرد في المجتمع ينتمي فعلاً إلى قيم المجتمع وعقائده، ستتكوّن له هويّة اجتماعيّة مضافاً إلى هويّته الفرديّة، فتتشكّل بينه وبين أفراد المجتمع - الحاكم والمحكومين- رابطة حقيقيّة لا اعتباريّة، تشكّل هذه الرابطة الحقيقيّة صبغة للنفس، تنتقل معها انتقال الملكات والأخلاق في الآخرة، ولأجل ذلك كان الاعتدال الروحي والإيماني والعقلي والسلوكي في المجتمع، والذي تتمّ على أساسه الروابط الاجتماعيّة كافّة، دور في جعل الجماعة ذات وحدة حقيقيّة تظهر وحدتها في الآخرة، فتظهر الأخوة الحقيقيّة في الآخرة في الوقت الذي تنقطع فيه الأنساب ويفرّ المرء من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته، لأنّ هذه الأنساب كانت مادّيّة فلا تنتقل عند مفارقة عالم المادّة، بخلاف الأخوة الإيمانيّة الحقيقيّة، ولذا كان أهل الجنّة كما قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ الحجر (47). وأمّا الذين بنوا نظامهم الاجتماعي على ما لا ينتقل إلى الآخرة، أي لا يساهم بتشكيل الهويّة الواقعيّة المتناسبة مع الروح المجردّة عن المادّيّة - والتي تتألّف من القيم والملكات الأخلاقيّة الرفيعة والإيمان بالله تعالى - فليس لهم رابطة واقعيّة إلّا رابطة البراءة والتلاؤم، قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ البقرة (166)، فحقيقة عداوتهم في الواقع هي عدم انتقال رابطتهم الأرضيّة التي كانت تجعلهم منسجمين في الأرض ضمن مدينة واحدة إلى رابطة أخرويّة حقيقيّة.

وبه يظهر أنّ يوتوبيات العدالة الاجتماعيّة لا تمثل عمق اليوتوبيا المهدويّة المستندة أيضاً إلى العدل.

● ثانيًا: البعد الروحي في اليوتوبيات الدينية المسيحية

1 - بيان المسألة

تعتبر أكثر اليوتوبيات الدينية، والتي طُرحت بشكل خاص في القرون الوسطى على يد آباء الكنيسة، من اليوتوبيات التي نظرت لآخر زمان روحي ومعنوي، أكثر من كونه تصميمًا ماديًا عمرانيًا كما نجده مثلًا في عصر النهضة وما بعده، وتجلّت أعظم يوتوبيا دينية مسيحية في كتاب "مدينة الله" للقديس أوغسطين.

صفوة الكلام الذي يذكره كتاب "مدينة الله" هو تصوير الجانب الروحي في المدينة الفاضلة والمجتمع المثالي على أنه الركيزة الأساسية، دون إعطاء قدر كبير لتحليل مفاهيم العدل والمساواة والحرية وما إلى ذلك، بل إن هذه القيم تكاد تكون أمورًا ثانوية في الفكر اليوتوبي الأوغسطيني بالنظر إلى البعد الروحي لأبناء "مدينة الله"، وهو يفصل في ذلك بين مدينتين: مدينة الشيطان ومدينة الله، حيث تكون شاكلة المدينة الأولى هي السعي وراء لذات الجسد والمادة، وبتعبير مختصر "الحياة لأجل الجسد"، في مقابل مدينة الله التي تكون الحياة فيها "حياة لأجل الله"، وبالتالي هناك تهميش لمحورية الشهوات الجسدية والمادية، هذه هي عمدة الفكرة الأوغسطينية حول مدينة الله، ويمكن بيانها تفصيلًا من خلال ذكر النقاط الآتية:

1 - قيمة الإنسان وبالتالي المجتمع البشري تكمن في ميوله الإيمانية، وبالتالي فإنّ مدينة الله هي تلك التي يسود فيها الإيمان بالله، وبالتالي «فإنّ

دستور المدينة يجب أن يرتبط بالتعاليم المسيحية وبالطابع المقدس»⁽¹⁾.
 2 - المائر الفاصل بين مدينة الأرض/الشیطان ومدينة السماء/الله، هو أن روح المدينة السماوية هو محبة الله، والعيش لأجله لا العيش لأجل الجسد وملذاته، « فالبنية السوسولوجية للمجتمع الأوغسطيني داخل مدينة الإله، لا تجعل التجمع جرتومياً حول المادة أو نتيجة للبحث عن إشباع الحاجات بل المحبة هي روح الجماعة وترعاها العناية الإلهية، وهي أساس التجمع والتفاهم بين الأفراد»⁽²⁾. وبهذا يفترق أوغسطين عن تصوير أفلاطون في جمهوريته في أن التجمع أساسه الحاجة إلى المأكل والملبس وغيرها من الحاجات المادية، ومن ثم يأتي القانون الحاكم والعدالة على طبقه - كما تقدم-.

ومن التصريحات التي ذكرها أن روح الجماعة هي هذه الميول والمحبة، ما ذكره في مدينة الله حيث قال "إذا أراد الإنسان أن يعرف شعباً ما، فعليه بكل تأكيد أن يتأمل فيما يحب أياً كان موضوع حبه"⁽³⁾.

3 - محورية العبادة والبعد عن الملذات الدنيوية هي أيضاً من المميزات التي يركز عليها أوغسطين في مدينته، «ففي الواقع أياً تكون السيطرة التي تمارسها النفس على الجسد والعقل على العيوب على ما يبدو، إن لم تؤدّ

1 - عفيان محمد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القديس أوغسطين نموذجاً (رسالة جامعية)، جامعة الجزائر، 2009، صفحة 82.

2 - عفيان محمد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القديس أوغسطين نموذجاً، مصدر سابق، صفحة 89.

3 - أوغسطين، مدينة الله، مصدر سابق، 161.

النفس والعقل واجب العبادة التي يطلبها، فإنَّ تلك السيطرة على الجسد لا تكون مستقيمة⁽¹⁾.

4 - فلسفة الانتظار، وكون وجود مدينة الله متعلّقًا بظهور المسيح، فقبل هذا الأمر تكون مدينة الله غير خالصة، بل متداخلة مع مدينة الشيطان، ولذا ذكر بعض الباحثين أنّ مدينة الله عند أوغسطين عبارة عن يوتوبيا خياليّة أو يوتوبيا "منتظرة" بشكل أدقّ، فمدينة الله ومدينة الشيطان اليوم "متشابكتان متداخلتان ريثما يفصل يسوع في ذلك وتحلّ الغلبة للمدينة الإلهيّة التي بفضل الزهد والكفّ عن الشهوات واتباع نواميس الفضيلة والتسامح تشتدّ شوكتها وتحقّق نصرها على مدينة الشيطان الأرضيّة"⁽²⁾.

2 - النقد في ضوء المهدويّة

لا يمكن أن نخفي أنّ هناك تقاطعًا بين محوريّة البعد الروحي في «مدينة الله» وما صورناه سابقًا عن المدينة الفاضلة المهدويّة، فكلاهما يركّز على ضرورة الانتقال إلى مستوى الروح والإيمان والاعتقاد الحاكم في الطبيعة اليوتوبيّة للمجتمع، ولكنّ هناك فرق يتمايز به المجتمع المهدوي عن اليوتوبيا الأوغسطينيّة، وهي بناء أصل الحياة الأرضيّة في «مدينة الله» على مفهوم الخطيئة والشيطنة، وهذا ما يتعارض بشكل واضح مع الفكر

1 - المصدر نفسه، 162.

2 - عفيان محمّد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القديس أوغسطين نموذجًا، مصدر

سابق، صفحة 106.

الإسلامي عموماً، ومع اليوتوبيا المهدوية خصوصاً، فإنَّ أوغسطين يصوّر - بناء على رؤية مسيحية ترجع النزول إلى الأرض إلى خطيئة آدم عليه السلام- تبايناً صارخاً بين العيش لأجل الله تعالى والاهتمام بالأرض وعالم الطبيعة، ولا نجد في فكره تصويراً لفطرة الله تعالى التي تعتبر أساساً في الفكر الإسلامي، وأنَّ الأصل في البشر هي الفطرة الصافية، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم (30).

ولذا، كانت مدينة الله عنده نوعاً من الانقلاب، بخلاف اليوتوبيا المهدوية التي تصوّر المدينة الإلهية على أنها نوع من الارتقاء وإخراج دفائن العقول والفطرة الإلهية. وبعبارة أوضح، إنَّ رؤية الإسلام للإنسان لا تجعل الأصالة فيه للخطيئة والشهوة والنزوات، بل تجعل هذه الأمور طارئة على حقيقته، وأمّا فطرة الله تعالى والاستقامة على الإيمان هي الأصل. ولذا، فالمدينة المهدوية تشبه أن تكون تربية لا انقلاباً وانتقالاً من طور إلى طور.

وهذا الأمر يجرتنا إلى طرح مسألة نزول آدم إلى الأرض ومعنى الخطيئة والعصيان المذكورة في القرآن الكريم وفرقها عن الخطيئة بالمعنى المسيحي، فإذا راجعنا الآيات حول أصل خلق آدم عليه السلام، يظهر لدينا أمران مهمّان في المسألة:

1 - أنَّ الله تعالى إنّما خلق آدم ليكون خليفة في الأرض لا في الجنة، وبالتالي فنزول آدم إلى الأرض هو في أصل خلخته.

2 - أنَّ الله تعالى جعل تعليم آدم من الأمور التي تميّزه عن المخلوقات الأخرى، ونحن نغضّ النظر عن معنى تعليم الأسماء إذ في المسألة بحث

كثير، ولكن إن قضية المعرفة والتعليم شكّلت أساساً في بنية آدم الذي يتّصف بأنّه خليفة الله.

وهذان الأمران بيّنتهما الآيات الآتية:

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ البقرة (30-33).

وبملاحظة ذلك نجد أنّ الملائكة عرفت أنّ وجود الإنسان في الأرض سيكون ملازماً لسفك الدماء والفساد، ولذلك اعترضت على الله تعالى بأنّها هي الظاهرة المسبّحة والمقدّسة له، وغير مشوبة بما يبعث على الفساد، فقال الله تعالى إنّّه قد علّم آدم والأسماء، وبهذا التعليم يتفوق عليكم ويكون أهلاً ليكون خليفة لله تعالى.

ثمّ إنّ الآيات القرآنيّة ترشد إلى أنّ المقصود من الخليفة مطلق الإنسان لا خصوص آدم عليه السلام، وبحسب ما يذكره العلامة الطباطبائي « فالخلافة غير مقصورة على شخص آدم (ع) بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، ويكون معنى تعليم الأسماء إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجاً دائماً ولو اهتدى إلى السبيل أمكنه أن يخرج من القوّة إلى

الفعل، ويؤيد عموم الخلافة قوله تعالى ﴿إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: الأعراف- 69، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾: يونس- 14، وقوله تعالى «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ»: النمل- 62. وثانياً، إنه سبحانه لم ينف عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء، ولا كذب الملائكة في دعواهم التسبيح والتقديس، وقرّره على ما ادّعوا، بل إنّما أبدى شيئاً آخر، وهو أنّ هناك أمراً لا يقدر الملائكة على حمله ولا تتحمّله ويتحمّله هذا الخليفة الأرضي، فإنّه يحكي عن الله سبحانه أمراً ويتحمّل منه سرّاً ليس في وسع الملائكة، ولا محالة يتدارك بذلك أمر الفساد وسفك الدماء⁽¹⁾.

فتحصل ممّا تقدّم، أنّ أصل خلق آدم كان لأجل أن يكون خليفة الله في الأرض، وقد أعطاه امتيازات تفوق الملائكة وهي تعليمه الأسماء، وأمّا قضية الخطيئة، فالتصوّر الأوغسطيني لها أنّها على حدّ ومثل خطايا البشر في عالم الدنيا، وليس الأمر كذلك في القرآن ووفق التصوّر الإسلامي، بل إنّ آدم كان في عالم الروح غارقاً في التوجّه إلى الله تعالى، ولكنّه أريد له أن يكون في الأرض، والحياة في الأرض تستلزم توجّهاً إليها بما تقتضيه الحياة فيها من شهوة وغضب وسائر القوى البدنية، فآدم «كان مخلوقاً ليسكن الأرض، وكان الطريق إلى الاستقرار في الأرض هذا الطريق، وهو تفضيله على الملائكة لإثبات خلافته، ثم أمرهم بالسجدة، ثم إسكان الجنة والنهي عن قرب الشجرة المنهيّة حتّى يأكلا منها فيبدو لهما سواتهما فيهبطاً إلى الأرض، فأخر العوامل للاستقرار في الأرض، وانتخاب الحياة الدنيوية ظهور

1 - العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 1: 30.

السوأة، وهي العورة⁽¹⁾ بقريته قوله تعالى: ﴿وَوَظْفًا يُخَصِّفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾⁽²⁾، وهو التمايل الحيواني ويستلزم التغذي والنمو أيضاً⁽³⁾. هذا مضافاً إلى أنّ أوغسطين لم يعط العدالة نصيهاً من التحليل والتفسير في مدينته الإلهية، بل جعل "محبة الله" هي الأصل الحاكم والعدالة أمر تابع له، ولكننا بالتصوير السابق للعدالة الشاملة لكل أبعاد النفس والاجتماع، يظهر لنا أنّ ما ذكره ناقص، وأنّ المحبة والعبادة والإيمان في الواقع هي مرتبة من مراتب العدالة بالمعنى العميق والشامل.

● ثالثاً: اليوتوبيا المستندة إلى العلم التجريبي/الطبيعي

1 - بيان المسألة

يعتبر كتاب «أطلنطس الجديدة» من الأعمال الفريدة من نوعها في تصوير يوتوبيا مختلفة عن تلك التي نظر إليها فلاسفة اليونان أو الفلاسفة الدينيون- المسيحيون-، حيث جعل مؤلفها، وهو فرانسيس بيكون، أحد الآباء المؤسسين للعلم التجريبي في عصر النهضة، الركن الأساسي الذي تتكى عليه المدينة الفاضلة هو "العلم الطبيعي"؛ وذلك لأنّ غاية السعادة تكون بسيادة العلم، وأهم علم هو الذي يعرفنا على علل الأشياء وحركاتها

1 - من حيث أنّها تشير إلى التوجّه إلى الحاجات الطبيعية الشهوانية للإنسان من حيث حياته الأرضية.

2 - سورة طه 121.

3 - العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، 1: 127.

الخفيّة⁽¹⁾. وبحسب بعض المؤرخين لليوتوبيا "أطلنطا الجديدة هي في الواقع حلم تعويضي يتحد فيه العلم والقوة ويمسكان بزمام أعلى سلطة في الحكم. إنّه الحلم بمختبرات هائلة، وأعداد كبيرة من المساعدين، وموارد ماليّة ضخمة"⁽²⁾.

وبعبارة مختصرة، إنّ هذا الحلم واليوتوبيا عند بيكّون عوّضت العالم الطبيعي مكان الحكيم والفيلسوف الذي جعله أفلاطون محور الحكم في مدينته الفاضلة، وتبريره في ذلك أنّ سعادة البشر متوقّفة على معرفة علل الأشياء الماديّة، والتي يتمّ من خلالها استخراج البركات والمنافع، وبالتالي تحقيق السعادة، فهي يوتوبيا مغرقة في التصوير المادّي للحياة البشريّة، وجعله القوة حليفة للعلم بالطبيعة.

2 - النقد في ضوء المهدويّة

قضيّة «العلم» الطبيعي التي شغلت مفكّري عصر النهضة وفلاسفة الطبيعة التجريبيين، جعلت أذهان هؤلاء الفلاسفة تتوجّه فقط إلى المدينة الفاضلة الماديّة، وأهملت الجانب المعنوي الأصيل في الحياة البشريّة، ولذا كانت «أطلنطا الجديدة» مدينة جافّة لا تضيف المعنى على الحياة الإنسانيّة.

1 - ويل ديورانت، قصّة الفلسفة، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، القاهرة- مصر، 1994، صفحة 177.

2 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، مصدر سابق، صفحة 188.

وأما المجتمع المهدوي، فوفق ما قدمنا، يكون مستوى الازدهار المادي والطبيعي فيه تابعا - في أحد علله وأسبابه - إلى التقوى والمعنويات، وأن إخراج الأرض بركاتها يتأثر بشكل كبير لا بمعرفة البشر العلوم الطبيعية فقط بل بجانبهم الروحي:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ فِي عِلَاه: ﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ الجن (16).

وقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ المائدة (66).

وقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ نوح (10-12).

وهناك أيضا قضية أخرى ترجع إلى أن المعرفة عموما في المجتمع المهدوي، تتمحور حول معرفة الله تعالى والعلم بأسمائه وصفاته بكل مراتب العلم العقلي والروحي، وهي من العلوم والمعارف التي يمكن القول بأنها - مضافا إلى محورية العدالة الشاملة - تعد من أركان المجتمع، فالأمة بأفرادها في ارتقاء دائم بما يمكن أن نسميه "تحمل العلم الإلهي" والذي به تتحقق حقيقة حياتهم المعنوية والحقيقية، وهذا ما أشرنا إليه سابقا عند الحديث عن كون وجود الحجّة في الأرض متفرعا على حفظ العلم الإلهي ونقله على ما ورد في حديث أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد، حيث جاء فيه «يَا كَمِيلُ هَلْكَ خَزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ

- وَالْعُلَمَاءُ بِأَقْوَنَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ - أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ
 مَوْجُودَةٌ [...] اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ - إِمَّا ظَاهِرًا
 مَشْهُورًا وَإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا - لئَلَّا تَبْطُلَ حُجُجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ - وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ
 أَوْلَيْكَ أَوْ لَيْسَ لَكَ وَاللَّهُ الْأَقْلُونَ عَدَدًا - وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا - يَحْفَظُ
 اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نِظْرَاءَهُمْ - وَيَزِرُوهَا فِي قُلُوبِ
 أَشْبَاهِهِمْ - هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمَ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ - وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ
 وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرَفُونَ - وَأَنَسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ -
 وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أَرْوَاحِهَا مُعَلَّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى - أَوْلَيْكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ
 فِي أَرْضِهِ وَالِدُّعَاءُ إِلَى دِينِهِ - آه آه شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ - انصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا
 شِئْتَ. (1)

● رابعاً: يوتوبيا محورية اللذة

1 - بيان المسألة

يوتوبيا توماس مور، كما ذكرنا سابقاً، تدخل في عداد الأدب اليوتوبي الذي يعتني بتفاصيل الحياة اليومية لليوتوبيين، من حيث ملبسهم ومأكلهم وعدد ساعات عملهم وغير ذلك، ولكن لا شك أننا بإمكاننا استخراج بعض البنى التحتية الفكرية والفلسفية التي تحكم المدينة المثلى عنده. لم يبدِ توماس مور أهمية فائقة للعقائد والآراء الفلسفية الواضحة عند اليوتوبيين، فالفلسفة والآراء المتعلقة بالمنظومة الأخلاقية عندهم،

هي مسألة نقاش وحوار لا أكثر⁽¹⁾، وإن كانوا يميلون بشكل واضح إلى اهتمامهم بموضوع «السعادة» وربطه باللذة⁽²⁾. ومن هنا يستفيض توماس مور بيان آرائهم حول اللذة التي تعتبر العنصر الرئيس في تحقيق السعادة بحسب جزيرته اليوتوبية. وأمّا تعريف اللذة فهي «كلّ حركة وحالة للجسم أو العقل يجد فيها الإنسان سروراً طبيعياً»⁽³⁾.

وأمّا تفاصيل الالتذاد والسعادة في يوتوبيا مور، فيمكن اختصارها ضمن النقاط الآتية:

1 - القانون تابع لتحقيق اللذات والسرور، «ومن هنا يرون أنّ من الواجب احترام، لا العقود التي تبرم بين الأفراد فحسب، بل أيضاً القوانين العامة، الخاصة بتوزيع السلع الحيويّة، أي مادة اللذة»⁽⁴⁾.

2 - الاهتمام باللذة العقلية، حتّى إنه يصرّو قيماً من قبيل المروءة والإحسان للآخرين على أنّها تجلب لذة عقلية أفضل وأعلى من لذة الاحتكار والاستفادة من المنافع دون إنفاقها، «أن تأخذ شيئاً من عندك وتعطيه للغير، فواجب من واجبات الإنسانية والمروءة، التي لا تأخذ منفعة أبداً دون أن تردّها، فأنت تعوّض عن ذلك بعود النفع إليك، وأيضاً الإحساس الذاتي بالعمل الصالح، فتذكّر حبّ وحسن نيّة أولئك الذين أسديت إليهم معروفاً، يمنح العقل قدراً من اللذة أكبر من اللذة

1 - توماس مور، يوتوبيا، مصدر سابق، 174.

2 - المصدر نفسه.

3 - المصدر نفسه 177.

4 - المصدر نفسه، 176-177.

الجسديّة التي حرمت نفسك منها“⁽¹⁾.

3 - التمييز بين اللذة الكاذبة واللذة الحقيقيّة، وذلك أنّ اللذة الزائفة هي تلك التي تحقّق شعوراً بالالتذاذ دون أن يكون هذا الشعور مستنداً إلى طبيعة الشيء في نفسه، مثل الالتذاذ بالأحجار الكريمة أو الالتذاذ بالألبسة الفاخرة وما إلى ذلك، وكون هذه الأمور ”تثير في الحواس شعوراً بالمتعة (مما تصنعه اللذة على ما يبدو) لا يجعلهم يغيّرون من رأيهم شيئاً، فالاستمتاع بهذه الأشياء لا يأتي من طبيعة الشيء ذاته، بل من العادة المنحرفة لتلك الشعوب، إذ يجعلهم هذا الميل الخاطيء يتقبّلون المرّ على أنّه حلو، كما تظنّ النساء الحوامل في فترة الوحم أنّ الزفت والشمع أحلى من العسل“⁽²⁾.

4 - يقسّم اليوتوبيّون - كما يبيّن توماس مور- اللذة إلى لذة جسديّة ولذة رويّة، واللذائذ الروحيّة هي ”الذكاء والمتعة الناتجة من تأمل الحقيقة“⁽³⁾ مثلاً، ويعتبرون الصّحة والعافية أهمّ اللذائذ الجسديّة⁽⁴⁾، وبطبيعة الحال فإنّ اللذة العقليّة مقدّمة على كلّ اللذائذ الحسيّة.

5 - لم يعر توماس مور في مدينته الفاضلة أهميّة كبيرة للدين بقدر ما يحقّق الاشتراكيّة والمساواة بين الناس، فلم تكن له قيمة اعتقاديّة واضحة، فحين يذكر أنّ اليوتوبيين قبلوا المسيحيّة، يقول ”أعتقد أنّ من العوامل

1 - المصدر نفسه 177.

2 - المصدر نفسه 181.

3 - المصدر نفسه 181.

4 - المصدر نفسه 183.

التي كان لها وزن ليس بقليل أيضاً، ما قد سمعوه من أن المسيح سرّ باشتراكيّة الحياة بين تلاميذه، وأنّ تلك الاشتراكيّة مازالت قائمة في أكثر المجتمعات المسيحيّة أصالة⁽¹⁾.

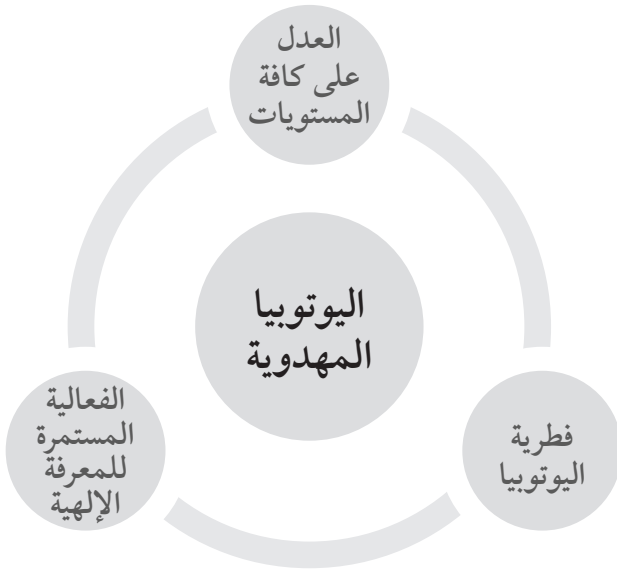
2 - النقد في ضوء المهدويّة

لا تشكّل «اللذّة» بكلّ أقسامها في المجتمع المهدوي إلا أثراً من آثار العلم الإلهي والعدالة الشاملة التي ذكرناهما سابقاً، وبالتالي فإنّ تصوير توماس مور لليوتوبيا، لا يسلم من نقد أساسي في ضوء المهدويّة، وهو جعل النتيجة والثمرة بمنزلة الوازع والسبب في أصل حركة المجتمع اليوتوبي وقيمه، بل إنّ اليوتوبيا المهدويّة تجعل الحراك المعرفي وبناء العدالة في جميع مستويات الإنسانيّة هي الأصل والمحور، وأمّا اللذّة فهي ثمرة من ثمرات هذه الحقيقة. وبعبارة أخرى، في يوتوبيا توماس مور اللذّة تحتلّ موقع المعيارية في المجتمع⁽²⁾، وتكون فطرة العلم والمعرفة وكشف الحقائق تابعة لها، وهذا بخلاف اليوتوبيا المهدويّة التي يكون فيها السعي المعرفي على ضوء أصل (تعليم آدم الأسماء)، كما بيّناه سابقاً، أصلاً ومعياراً وغير تابع للذّة، وإنّ كانت اللذّة تابعة له. ومن الانتقادات الأخرى المتوجّهة إلى يوتوبيا توماس مور، هو حصر

1 - المصدر نفسه 213.

2 - راجع: بهروز محمدي منفرد، نقد كتاب اوتوبياي تامس مور، پژوهشنامه انتقادی متون و برنامه های علوم انسانی، العدد 12، الشهر الأول من عام 1399، صفحة 365.

العدالة بالعدالة التوزيعية المادية والأرضية، دون إشارة إلى أصناف أخرى من العدالة التي ذكرنا سابقاً أنّها متحقّقة في اليوتوبيا المهدوية⁽¹⁾. وبناءً على كلّ ما سبق، يمكننا أن نجعل اليوتوبيا المهدوية مقابل هذه اليوتوبيات وفق الرسم البياني الآتي:



1 - راجع: بهروز محمدي منفرد، پژوهشنامه انتقادی متون و برنامه های علوم انسانی، العدد 12، الشهر الأول من عام 1399، صفحة 365.



الفصل الثالث:
نموذج أدب يوتوبي مهدوي

كما ذكرنا سابقاً، إنَّ اليوتوبيات التي قدّمها الفلاسفة والمفكّرون اتّخذت في أغلبها شكلاً أدبيّاً، بحيث اعتمد الكاتب أسلوب المحاورّة - كما في جمهوريّة الأفلاطون - أو أسلوب السرد القصصي - كما في يوتوبيا توماس مور - لبيان أبعاد مدينته الفاضلة، ولذا ولكي يكون هذا العمل البحثي كاملاً، نجد أنّه من الضروري أن يشمل كلا الجانبين:

1 - الأوّل البحث النظري الذي تقدّم في الباب الأوّل التأسيلي والباب الثاني النقدي.

2 - الثاني النموذج الأدبي لليوتوبيا المهدويّة، وهذا ما سيتكفّل به هذا الباب.

ولمّا كان كاتب هذه السطور ليس أدبيّاً بالمعنى اللائق للكلمة، كان الأدب اليوتوبي الأفضل هو المحاورّة؛ لأنّها تكاد تكون وسطاً بين الكلام النظري والسرد القصصي.

النصّ الأدبي المقترح

1 - الورقة الصفراء

« لم يكن الأمل يوماً أمراً هامشياً في حياة البشر، فالإنسان مهما أحاطت به الشدائد، يبقى في داخله شعاع يجعله يعلّق آماله على نهاية سعيدة أو مُرضية، ولذا عدّ بعض الحكماء اليأس والكآبة من الأمراض النفسيّة التي لا بدّ من علاجها، وكأنّ الرؤية المُعتمة للنهايات هي أحد الأمور التي ينفر منها الإنسان، والتي تعبرّ عن خروج عن الطبيعة المستقيمة والصحيّة، كما يكون الإحساس بالمرارة عند تذوّق العسل أمراً مرصياً وخروجاً عن الذائقة

المستقيمة، ولكن في الوقت نفسه ألا يُعدّ "خيال" الأمل وأسطوريته وعدم واقعيته نوعاً من الكذب الذي لا يلغي الكآبة ولا يحقق الأمل عند فاقده؟ هل يقنع فاقد الأمل بوهم الأمل؟ حتماً لا؛ لأنّ الأمل الموهوم لا يقلّ عن عدم الأمل، كما أنّ مَنْ أشبع نفسه بأوهام الأكل والشرب، لا يصبح شبعان مرتويًا.

فالأمل الذي تصبو إليه النفس، هو أمل مقرون بالواقعية، وليس أملاً أسطورياً، كاذباً، هذه هي حقيقة النفس في أحد ميولها الجبليّة، ولا نتكلّم فقط عن أمل نهائيّ شامل لحياة الإنسان والبشرية، بل حتّى الآمال الجزئية هي عنصر أساسي في وجدان الإنسان، فالأمل بالارتواء أمر ضروري لحركة العطشان، والأمل بالنجاة هو أحد أسباب سعي المأزوم أو الغريق لأن يتحرّك، وكذا أمل الإنسان من حيث هو إنسان - لا من حيث هو جائع أو غريق - بل الإنسان في إنسانيّته، له أمل وراء جزئيات حياته اليومية، أمل بأن يخلو عالمه الذي يعيش فيه من الضيق والمآسي ومن الظلم والجور». هذا النصّ الذي عثر عليه "أويس" بين بعض الكتب في مكتبة الجامعة شكّل أمراً صادماً له، وخاصّة أنّه مكتوب على ورقة صفراء تفوح منها رائحة زمن قديم كتب فيه، أخذ الورقة وجلس على أحد مقاعد المكتبة، وصار يسجّل بعض الأسئلة:

■ أيّ أمل يملأ وجدان الإنسان بحيث يشعر أنّه لو تحقّق لكان فيه سعادته وحياته الطيبة؟

■ هل أمل الحياة المستقرّة الخالية من الاعتداءات الاجتماعيّة والمظالم الاقتصاديّة أمر يشكّل عمق الأمل الإنسانيّ؟

- هل توفير الرفاهية بين الناس يسكّن روعهم ويجعلهم يعيشون في مدينة فاضلة ومستقرة؟
- هل السعي وراء اللذة بشتّى أنواعها هو ما تسعى إليه النفوس الإنسانية؟

2 - مع أستاذ الفلسفة اليونانية

خطر على باله أن ينقل هذه الأسئلة إلى بعض أساتذته، فتوجّه أولاً إلى أستاذ الفلسفة اليونانية، فأعطاه النصّ، حيث قرأه الأستاذ على عجاله، وأجابته دون تفكير:

■ نعم، هذا بحث اليوتوبيا والمدينة الفاضلة، لقد عالجه فلاسفة اليونان والإغريق بشتّى الوسائل.

■ وما كان جوابهم أيّها الأستاذ؟

■ ذكروا أنّ الأمر بسيط، علينا أن نعرف أولاً أنّ الإنسان في هذا العالم لا تتعلّق آماله إلاّ بالأموال التي لا يمكن أن يحققها بمفرده، فهو كائن مليء بالحاجات التي تزدهم عليه كلّ يوم، من حاجة المأكل والملبس والسكن وغير ذلك، وهذه الحاجات ألجأت الإنسان منذ فجر التاريخ لكي يشكّل اجتماعاً ومدينة تتوزّع فيها الأدوار، بحيث يؤمّن لي شخص غيري طعامي وأنا أوّمن له بدوري لباسه - كما لو كنتُ خياطاً- وهكذا تتوزّع الأدوار.

■ ولكنّ أيّها الأستاذ، ماذا نفعل لو احتكر صانع الطعام الحنطة والقمح، وجعل الناس في حاجة زائدة، ولم يكن ذا أخلاق كافية تجعله يبذل ما يحصد من قمح؟

■ نعم، ولأجل ذلك لا بدّ من قانون يحكم المجتمع، وهنا نشأت فكرة القانون الذي يُعنى بتنظيم هذه العلاقات، وهو قانون لا بدّ أن يكون عادلاً بحيث ينظّم حياة الناس ويمنع الاحتكار وغير ذلك، من خلال العقوبات المفروضة.

■ فإذا طبّقنا القانون العادل وأعطى كلّ إنسان نصيبه من الحاجات، هل نصل إلى مدينة فاضلة يكون التواجد فيها مشعباً لهذا الأمل الإنساني؟

■ هكذا ذكر سقراط في محاوره سجّلها أفلاطون، وذكر تفاصيل كثيرة أخرى تتعلّق بتقسيم الأعمال وشكل الحكم وكيفية العلاقات الاجتماعيّة.

■ ولكن أيّها الأستاذ، إنّ الأمر يعالج حياة الإنسان ببعدها الاجتماعي المادّي، فلو سلّمنا أنّ الإنسان قد أشبعت حاجاته، ولم يعتد عليه أحد ولم ينقص من ماله أو أكله أو لباسه شيء، فهل تسكن نفسه ويمتلئ قلبه بالرضا؟ فإننا نجد أنّ كثيراً من الأغنياء مثلاً لا يعيشون الهناء، ومبتلون بالكآبة، ولديهم شحّ في الرضا والحياة الطيِّبة مع أنّهم "أفلاطونيون" في حياتهم؟

■ نعم، كلامك صحيح يا أويس، ولعلّ لأجل هذا الأمر -لا حصراً- نشأت يوتوبيات أخرى، تركّز على الجانب الروحي في الإنسان، وتجد أنّ المدينة الفاضلة هي مدينة "الله" ومدينة المعاني الروحيّة والإيمانيّة، وإذا أردت أن تبحث عن ذلك اذهب إلى أستاذكم في فلسفة القرون الوسطى فهو يفيدك؛ لأنّ يوتوبيات الروحانيّة نشأت في ذلك العصر بشكل واضح.

3 - مع أستاذ القرون الوسطى

ذهب «أويس» بشكل مباشر إلى أستاذه المختصّ في فلسفة القرون

الوسطى، واتفقا على موعد في اليوم التالي بين حصص الدراسة للتداول في أسئلته، وفي اليوم التالي، وعلى الموعد، بادر «أويس» بالسؤال:

■ أستاذي العزيز، بعد المعذرة على اقتطاع بعض الوقت منكم، فإنني كنت أبحث عن اليوتوبيا الدينية أو الروحانية.

■ لقد ذكرتني بكتاب "مدينة الله" لأوغسطين، هذا القديس الفدّ الذي عاصر مشكلات روما في عصره واتهامات الوثنيين بأنّ تبنيّ الدولة للديانة المسيحية لم يجلب سوى المشكلات والمآسي، فسعى من خلال هذا الكتاب للردّ على هذه الإشكالات.

■ وماذا ذكر فيه؟

■ أفكار هذا الكتاب كثيرة ومتداخلة وليس لها مسار واحد، ولكن في خصوص بحث الأمل واليوتوبيا، ذكر أنّ اليوتوبيا لا يمكن أن تتحقّق في مدينة الأرض قبل عودة المسيح، بل إنّ البشر في ذاتهم غير قادرين على الوصول إلى أمل متحقّق يملأ وجودهم؛ لأنّهم في أصل حياتهم الأرضية مبتلون بالخطيئة التي ارتكبتها آدم - كما يقول - وبالتالي إنّ مدينة الأرض هي مدينة شيطانية ملؤها الشهوات والنزوات، وأمّا مدينة الله فهي مدينة نتظرها عندما يأتي المسيح ويفصلها عن مدينة الشيطان.

■ يعني كانت نظرتي لليوتوبيا نظرة انتظار لتغيير طبيعة الحياة الأرضية؟

■ نعم، يمكننا القول كذلك.

■ على أيّ حال، ما هي أوصاف "مدينة الله" عنده؟

■ إنّها مدينة قائمة على العبادة ومحبة الله، أي كما يقول "الحياة بحسب

الروح" لا الحياة بحسب الجسد.

■ ولكن هذا أقرب ما يكون إلى أمل أسطوري، بمعنى أن إهمال التنظير للجسد والعدالة الاجتماعية مثلاً، هو كحبة دواء مسكن لآمال وآلام البشريّة، وبالتالي ستكون الحياة الأرضية ذاتها شرّاً لا خير فيها، وكيف يجتمع هذا مع خلق العالم من قبل الله تعالى؟ فخلقه له سيكون أشبه بالبعث.

هنا تذكّر «أويس» النصّ الذي وجده في المكتبة، حيث جاء فيه «لأنّ الأمل الموهوم لا يقلّ عن عدم الأمل، كما أنّ من أشبع نفسه بأوهام الأكل والشرب، لا يصبح شعبان مرتويّاً»، ولكنه لم يذكر شيئاً للأستاذ، وشعر أنّ ما ذُكر في «مدينة الله» وإن كان يعالج إشكاله الأساسي حول نقصان يوتوبيا الجمهوريّة الأفلاطونيّة، ولكنه عالج المشكلة بإيجاد مشكلة جديدة.

■ أيّها الأستاذ الفاضل، ما هي أصناف اليوتوبيات التي طُرحت غير تلك التي طرحها أفلاطون وأوغسطين؟

■ نعم، مع تغيير الزمان والانتقال لعصر النهضة، نجد أنّ التوجّه إلى يوتوبيا أوغسطين صار خافتاً بسبب تغيير سؤال الزمن، بدأت تظهر يوتوبيات مناسبة لأسئلة عصر النهضة، مثل يوتوبيا توماس مور، ويوتوبيا فرانسيس بيكون.

■ وهل يمكنني سؤالك عنهما؟

■ لا أظن أنّ لدي الوقت وسعة المعرفة المطلوبة، إذا أردت ذلك فإذهب إلى أمين المكتبة نفسه، فهو في الآونة الأخيرة كان يكتفّ قراءته حول هذه العصور.

4 - مع أمين المكتبة

أمين المكتبة اتفق مع أويس أن يلتقيا بعد انتهاء دوام الجامعة في آخر أيام الدراسة الأسبوعية، وهذا ما جرى:

■ إذاً، يا أمين مكتبتنا، ماذا عن توماس مور؟

■ توماس مور... أديب اليوتوبيا.. نعم، كتابه من الكتب الأدبية الجميلة، اسمه "اليوتوبيا"، وهو أول من استعمل هذا المصطلح.

■ «كتاب أدبي»؟ أليس كتاباً فلسفياً ككتاب أفلاطون المسمّى "الجمهورية" أو كتاباً دينياً ككتاب "مدينة الله" لأوغسطين؟

■ لا لا، هو كتب كتاباً يصف فيه البنية الفوقية لجزيرة فاضلة، أي طريقة حياتهم في تفاصيلها اليومية.

■ يعني وصف كيف يأكلون وماذا يشربون وهكذا؟

■ نعم، كتباً وصفاً دقيقاً لهذه الأمور، ولكنّه وصف يشبه عصره، فكتب عن العبيد والأحرار، وكتب عن ديانة المسيحية، وكتب عن كيفية زراعتهم بطريقة مناسبة لعصره.

■ ألم يكتب تحليلاً للبنى التحتية لجزيرته الفاضلة؟

■ يمكننا أن نصطاد من عباراته البنى التحتية الفلسفية والفكرية التي تقوم عليها هذه اليوتوبيا؟

■ جيّد، فما الذي يجعل اليوتوبيين عنده يعيشون حياة فاضلة وطيبة؟

■ من خلال مراجعتي لكتابه وجدته يركّز على "اللذة"، أي إنهم يوتوبيون لأنهم يبحثون عن اللذة ولا يشغلون بالهم بأمور متعبة لا لذة وراءها، فاللذة هي السرور والسعادة، وليست المدينة الفاضلة أو اليوتوبيا إلا ما

تحقق اللذة لأبنائها.

■ ولكنْ كأننا بذلك نرجع إلى جمهوريّة أفلاطون في تنظيم الحياة الاجتماعية؟

■ ليس كذلك بالدقّة، فهم لم يعطوا أهميّة قصوى للقانون والتنظيمات القانونيّة والمؤسّسات كما فعل أفلاطون، بل قالوا إنّ السعادة تكمن أصلاً بقلة القوانين وقلة المؤسّسات، مضافاً إلى أنّهم فضّلوا اللذة العقلية على اللذة الجسديّة.

■ اللذة العقلية؟ ماذا يقصد توماس مور من ذلك؟

■ اللذة العقلية هي التي تجعلنا نسرّ بأمور وجدانية داخلية دون حصول متعة حسية، مثل الإنفاق على الفقراء، أنت عندما تقتطع من طعامك وتعطي الفقير، تقلّ لذتكَ الحسية ولكنك تشعر بلذة روحية أو وجدانية أو فلنقل عقلية.

■ ولكنْ أليس الالتذاذ في نفسه يجعلنا نغفل الحقائق لحساب المتعة؟ يعني أنا أبحث عن وجود الله مثلاً لأجل الالتذاذ بالعقل والفكر أم لأجل سؤال وجودي في داخل نفسي؟

■ في الحقيقة، وفق ما يطرح مور في كتابه، ولو على نحو التلميح، إنّ اليوتوبيين لا يبالون كثيراً بمعرفة الحقّ لأجل الحقّ، ولذا لم يكن موضوع الديانات عندهم مسألة محورية في حياتهم، واعتبروا أنّ طلب الفضيلة بما هي هي دون المنفعة واللذة ضرب من الجنون.

هنا توقّف أويس، حيث لم يجد نفسه مقتنعاً بأنّ آمال البشرية حدّها الالتذاذ، ولكنه عدل مباشرة إلى «فرانسيس بيكون» وسأل عن اليوتوبيا

التي طرحها، فأجابه أمين المكتبة:

■ فرانسيس بيكون كتب كتاباً باسم «أطلنطس الجديدة» وكان يكون توصيفاً لمختبر كبير توّدى فيه التجارب الطبيعيّة والكيميائيّة والفيزيائيّة وغير ذلك لأجل اكتشاف قوانين الطبيعة.

■ هذه يوتوبيا؟!!

■ نعم، وإن كان البعض يشكك في ذلك، ولكنه باعباره أباً من آباء العلم التجريبي، طرح رؤية مفادها أنّ السعادة تكمن في استخراج كنوز الأرض، وخيراتها، وهذا متوقّف على معرفة علل الأشياء في الطبيعة، ومن أجدر بهذه المهمة من العلوم الطبيعيّة التجريبيّة؟ ولذا قال إنّ العلم هو القوة، وأنّ العلماء أهم من الحكّام في تحقيق المدينة الفاضلة.

■ ولكن للبشر حاجات معنويّة وروحيّة، ولديهم آمال معلقة ومنتظرة لتحقيق الطمأنينة غير هذه الأمور، ثم إنّنا ماذا نفسّر هذه اليوتوبيا في زمان -بعد زمان بيكون- حيث اندلعت الحروب العالميّة ولم تكن هذه العلوم بنفسها أماناً وسكناً؟.

هنا أخرج أويس الورقة الصفراء، معتذراً من أمين المكتبة أنّه أخذها دون إذنه، وأعطاه إيّاها كي يقرأها، فتبسّم أمين المكتبة، وقال له هذه الورقة هي صفحة من كتاب قديم وفريد من نوعه، ويا للعجب، هو كتاب يبحث عن "يوتوبيا" من نوع آخر.

هنا دُهِش أويس، وطلب من أمين المكتبة أن يحدّثه عن هذه اليوتوبيا الجديدة، فقال له أمين المكتبة: "سأعطيك هذا الكتاب، ولتقرأه بنفسك... هكذا أفضل".

ذهب أمين المكتبة إلى أقصى زوايا المكتبة، واستخرج كتاباً غلافه قديم صاف لم يكتب عليه شيء، ونفض عنه الغبار، وأتى به، وبرفق وضعه على الطاولة أمام أويس، وقال "استمتع بالقراءة".

5 - البوتويا المهدوية

في ليلة مقمرة، حمل أويس الكتاب « المجهول » في حديقة منزله، وبدأ يقرأ:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إبراهيم (24-25).

أصل أصول الدنيا وعالم الطبيعة أنه امتداد شعاع الغيب والآخرة، وليس أمراً منقطعاً عن العوالم الأخرى، فالدنيا هي عالم الحركة والتبدل، ينتقل فيه البشر من حرب إلى سلم، ومن حضارة إلى أخرى، ولكن هذه الحركة هي حركة تحت ظلّ عناية الله تعالى، وليست حركة عبثية لا غاية وراءها، فالله الحكيم المطلق، والخير المحض، خلق عالماً في صلبه وجوهره التبدل، وجعل لنا الإرادة في فعلنا، ولكنه محيط بنا وبهذا العالم، ولا يكون في الختام إلا ما يريده، ولا يكون ما يريده إلا ما يليق بحقيقته، ولا يليق بحقيقته إلا الخير، وهذا معنى "عاقبة الأمور"، ألم تقرأ قوله تعالى:

قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج (41).

فالذين يُمكنون في الأرض، فيقيمون الصلاة، ويعبدونه، ولكن في الوقت نفسه يأمرن بالمعروف، ويواجهون الظلم، هؤلاء هم ظلّ عاقبة الأمور التي لله تعالى.

فلا بدّ من نهاية مشرقة للإنسانية تُشبع آمالهم وتحقق فطرتهم، وأما النهاية المأساوية المليئة بالشرّ والظلم، فهي أمر ينفر منه العقل والدليل لا أنّه مجرد أمر لا تستسيغه مشاعرنا وأمنياتنا وأحلامنا، بل العقل الذي يرى الله تعالى موجوداً حكيمًا وله العناية المفاضة عنه، والتي لا تكون إلا من طبيعة الخير، يحكم بذلك، وقد فصلّ حكماء الإسلام في هذا الأمر كثيرًا فيما يسمّى عندهم بحث العناية والجود.

وليس نزول آدم إلى الأرض إلا جزءًا من إرادة الله تعالى لجعله خليفة لائقًا له تعالى، يخرج من أبنائه الأنبياء والصدّيقون والمعصومون، الذين يزيتون الأرض بالإيمان، فالزينة زينة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ الحجرات (7).

فلا تسمع لمن يقول إنّ أصل الهبوط إلى الأرض خطيئة وشرّ، بل فيه بركات وحمل أمانة الجميل المطلق تعالى.

بل إنّ نزوله كان مقدّرًا من الأصل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة (30)، وهو خليفة الله في هذا العالم،

هل تعلم ما معنى خليفة الله؟

هو الذي يُظهر أمره وحكمه ويكون تجليًا لأسمائه وصفاته، ويكون كاملاً في العلم والعمل والمعرفة الأتم، ومن هنا ذكر الحكماء أنّ خليفة

الله تعالى هو الذي يعرفه على الوجه التام، وهو الذي يأخذ على عاتقه قيادة البشرية إلى هذه المعرفة والحقائق عبر إقامة مجتمع العدل والقسط الذي يفتح لهم باب المعرفة.

فالعامل في الدنيا يكون عملاً للآخرة أيضاً، فالدنيا مرتبة من العوالم المتصلة ببعضها، وتحقيق العدالة والقسط فيها غاية، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد (25).

ولكن هذه الغاية ليست غاية أرضية فقط، بل هي غاية في طول وعلى مسار غاية الطهارة والتزكية لقلوب البشر، وهي غاية العبودية، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات (56).

إن تحقيق الأرض الطيبة، هو ككلمة طيبة، أصلها أرضي وثابت وفطري، ولكنها متصلة بالسماء.

إن بركات الأرض تخرج بالإيمان والتقوى، ومن دون الإيمان سترتد عليهم قاحلة، وسيضعف نسلهم، وتجف أرضهم، فالسماء والأرض عباد مطيعون لله، قَالَ اللَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصلت (11)، وهي ذات روح عابدة، لا تمكن الإنسان من نفسها إلا بعدل منه، ولذا أخرجت الأرض بركاتها للمستقيمين على الطريقة، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ الجن (16)، وَقَالَ جَلَّ فِي عُلَاهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ

لَأَكْلُوا مِنْ فَوْتِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿المائدة (66)﴾.

في هذه اليوتوبيا تختلط الأرض بالسماء؛ أي تمتد عدالة الأرض لتشمل عدالة القيم والاعتقاد والإيمان، ويسعى المجتمع ليستقيم في معرفته وملكاته وسلوكه، ليس ظهور مهدي آخر الزمان - عجل الله ظهوره - كظهور مصلح اجتماعي أفلاطوني، بل ظهوره ظهور العدل الشامل لكل مراتب الأمل الإنساني، وهو أمر واقعي ومحتوم، المهدي من المحتوم، وروي عن الإمام الجواد عليه السلام: «إِنَّ الْقَائِمَ مِنَ الْمِعَادِ وَاللَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِعَادَ»⁽¹⁾، أما تقرأ ما ذكرنا أن وهم الأمل ليس لا كعدم وجود الأمل، وأن الذي يملأ وجدان البشرية هو واقعية الأمل وحتميته لا توهمه والأمنية المحضة؟!!

أغمض أويس عينيه وتفكر في هذا الكلام، إنها يوتوبيا من نوع آخر، شيء آخر، شيء يليق بأمال الإنسان.

1 - النعماني، الغيبة، مصدر سابق، صفحة 302.

الخاتمة

اليوتوبيا في الفكر العالمي تجمع بين عدّة أمور ممتزجة ببعضها، من قبيل الفلسفة والأدب والخيال والدين، ويمكن للقارئ من خلال ملاحظته المقارنة، التي ذكرناها في الباب الثاني، أن يلاحظ كيف أنّ موضوع الحياة الأفضل والمدينة المثلى اتّخذ المفقرون على طول التاريخ قضيةً حقيقيةً لبثّ كثير من الكتابات بشتّى أصناف الأساليب، فبعضهم وجد القصة طريقاً لتصوير مجتمعه المثالي، وبعض آخر وجد المحاورّة، وثالث وجد الدين والنصوص الدينيّة والتأمّلات الصوفيّة لذلك، وبعضهم اختار البحث الفلسفي العقلي، كلّهم كانوا يسعون وراء العثور على نموذج «أفضل» للحياة.

وقد حاولنا في هذا المتن أن نقدّم مقدّمة قصيرة جدّاً حول ثلاثة أمور: الأمر الأوّل: تأصيل الرؤية الإسلاميّة عمومًا، والإماميّة خصوصًا، حول اليوتوبيا والمجتمع المثالي، وذلك بالاعتماد على الفكر الفلسفي والنصّ الديني.

الأمر الثاني: رصد وتوصيف اليوتوبيات المطروحة على طول التاريخ، ومحاولة استخراج العناصر المضمونيّة لها؛ أي تلك المفاصل التي تشكّل بنية تحتيّة فكريّة وفلسفيّة، والتي على أساسها كتب المفكّرون يوتوبياهم الخاصّة، ومن ثمّ وبعد هذا الرصد والتوصيف، عمدنا إلى المقارنة بين هذه المضامين والرؤية المهدويّة التي أسّسنا لها في الأمر والباب الأوّل. الأمر الثالث: وهو الذي شكّله الباب الثالث في بحثنا، حيث وجدنا

ضرورة على مستوى الأدب اليوتوبي المهدوي، ولعله لا يوجد أي نص أدبي يوتوبي مهدوي عند الشيعة الإمامية، وجدنا من الضروري أن نقدّم نموذجاً على هيئة المحاور، ولعله يفتح الباب لأن يكتب الأدباء الذين لهم أقلام قويّة من الناحية الأدبية أدباً يوتوبياً مهدوياً، وهو من مصاديق محاسن الكلام الذي تجد النفس انسجاماً بينها وبينه، ويقرب أكثر النفوس إلى حقيقة المهدوية والاتصال بالإمام الغائب عليه السلام.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، نشر البلاغة، قم - إيران، 1375 هجري.
- ابن سينا، الشفاء- الإلهيات، مكتبة السيّد المرعشي النجفي، قم- إيران، 1404 هجري.
- أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، بيروت- لبنان، 1986.
- أفلاطون، الجمهوريّة، ترجمة فؤاد زكريّا، مؤسّسة هنداوي، القاهرة- مصر، 2023.
- أوغسطين، مدينة الله، ترجمة: الخورأسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 2007.
- بهروز محمدي منفرد، پژوهشنامه انتقادی متون و برنامه های علوم انسانی، العدد 12، الشهر الأول من عام 1399
- توماس مور، يوتوبيا، ترجمة: أنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة- مصر.
- جان فرانسوا دورتيي، فلسفات عصرنا: تياراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، ترجمة: إبراهيم صحراوي، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، 2009.
- روح الله الخميني، صحيفة الإمام (ترجمه عربي)، 22 جلد، مؤسسه تنظيم و نشر آثار امام خميني (س) - ايران - تهران، چاپ: 1، 1429 ه.ق.
- صدر الدين الشيرازي، تفسير القرآن الكريم. قم - ايران: بيدار، 1366 هجري

شمسي.

- صدر الدين الشيرازي ، سه رساله فلسفى (متشابهات القرآن - المسائل القدسية - أجوبة المسائل) (أجوبة المسائل). قم - إيران: دفتر تبليغات اسلامي حوزة علميه قم، 1387 هجري شمسي.
- صدر المتألهين الشيرازي، أسرار الآيات، انجمن حكمت وفلسفه اسلامي، طهران- إيران، 1360 هجري شمسي.
- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 1996.
- عفيان محمّد، التوظيف السياسي لليوتوبيا: القدّيس أوغسطين نموذجًا (رسالة جامعيّة)، جامعة الجزائر، 2009.
- لايمان تاور سارجنت، اليوتوبيا، ترجمة: ضياء رواد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، 2016.
- ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، 1997.
- مجموعة مؤلّفين، اليوتوبيا والفلسفة، الرابطة العربيّة الأكاديميّة للفلسفة، الرباط- المغرب، 2014.
- محمّد باقر الصدر، المدرسة القرآنيّة (موسوعة السيّد الشهيد الجزء 19)، مركز الأبحاث التخصصيّة للشهيد الصدر، قم - إيران، 1421 هـ.
- محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسّسة الفاء، بيروت، 1983.
- محمّد بن ابراهيم النعماني، كتاب الغيبة، نشر صدوق، طهران- إيران، 1397

هجري.

■ محمد بن الحسن الطوسي، كتاب الغيبة، دار المعارف الإسلامية، قم - إيران،

1411 هجري.

■ محمد بن علي ابن بابويه، كمال الدين وتمام النعمة، تهران - ايران: دار

الكتب الإسلامية، 1395 هجري شمسي.

■ محمد بن علي الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق: علي أكبر

غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، 1395 هجري.

■ محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، دار الحديث، قم - إيران، الطبعة الثالثة،

1388 هجري شمسي.

■ محمد تقّي المجلسي، روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه. ايران :-

بنیاد فرهنگ اسلامی کوشانپور، 1406 هجري.

■ محمد حسين الطباطبائي، رسالة الولاية، مؤسسه اهل البيت (عليهم السلام)

- ايران - قم، 1360 ه.ق.

■ محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة الأعلمي

للمطبوعات، بيروت - لبنان، 1390 هجري.

■ نهج البلاغة، إعداد: الشريف الرضي، تحقيق: صبحي الصالح، دار الكتاب

العربي، بيروت - لبنان.

■ ويل ديورانت، قصّة الفلسفة، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي،

القاهرة - مصر، 1994.

■ يدالله يزدان بناه، مختصات حكمت متعالیه، انتشارات آل أحمد (ص)، قم -

إيران، 1399 هجري شمسي.

مركز برائنا للدراسات والبحوث

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والاجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعياً للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

يُعتبر موضوع «المدينة الفاضلة» أو ما يسمّاه اليوتوبيا من الموضوعات التي اتّخذت مساحات واسعة في الفكر والأدب العالمي، حيث سعى العديد من المفكرين والأدباء والفلاسفة إلى تقديم تصوير لمدينة مثالية تخلو من كلّ أسباب التعاسة والشقاء، وهذا الأمر يكشف عن معناه الحياة والسعادة والعدالة عند كلّ من قدّم أدباً يوتوبياً أو فكراً نظرياً حول المدينة الفاضلة. من هنا سعينا في هذا الكتاب إلى أن نعمل على بيان البنية التحتية للمجتمع المثالي المهدويّ وفق ما يقدمه لنا القرآن والنصوص الدينية والعقل الفلسفي الإسلامي، وبعد ذلك بيّنا سائر اليوتوبيات العالمية ونقدناها في ضوء المهدوية، وفيه الباب الأخير سعينا لتقديم «أدب محاورة» حول المدينة الفاضلة المهدوية، إذ إن أغلب اليوتوبيات قد طُرِحَ في قالب أدبيّ فأردنا تقديم نموذج مقابل

♦ الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز ♦

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research

www.barathacenter.com

barathacenter@gmail.com

مدير المركز د. محمد مرتضى

☎ 009613821638